رقصة النكبة

محمود فطين

رقصة النكبة / قصص

محمود فطين

الطبعة الأولى ، ٢٠٠٩

دار اكتب للنشر والتوزيع

القاهرة ، ١ش المعهد الديني ، المرج

هاتف : ٠٢٢٤٤٠٥٠٤٧

موبايل : ٠١٢٩٢٥١٥٩٢ - ٠١٨٢٣٦٣٠٣٥

E – mail : dar_oktob@gawab.com

المدير العام :

يحيى هاشم

تصميم الغلاف :

حاتم عرفة

رقم الإيداع : ٢٠٠٩/٢٦٥١٨

I.S.B.N: ٩٧٨-٩٧٧-٦٢٩٧-٦٦-٤

رقصة النكبة

قصص

محمود قطين

الطبعة الأولى

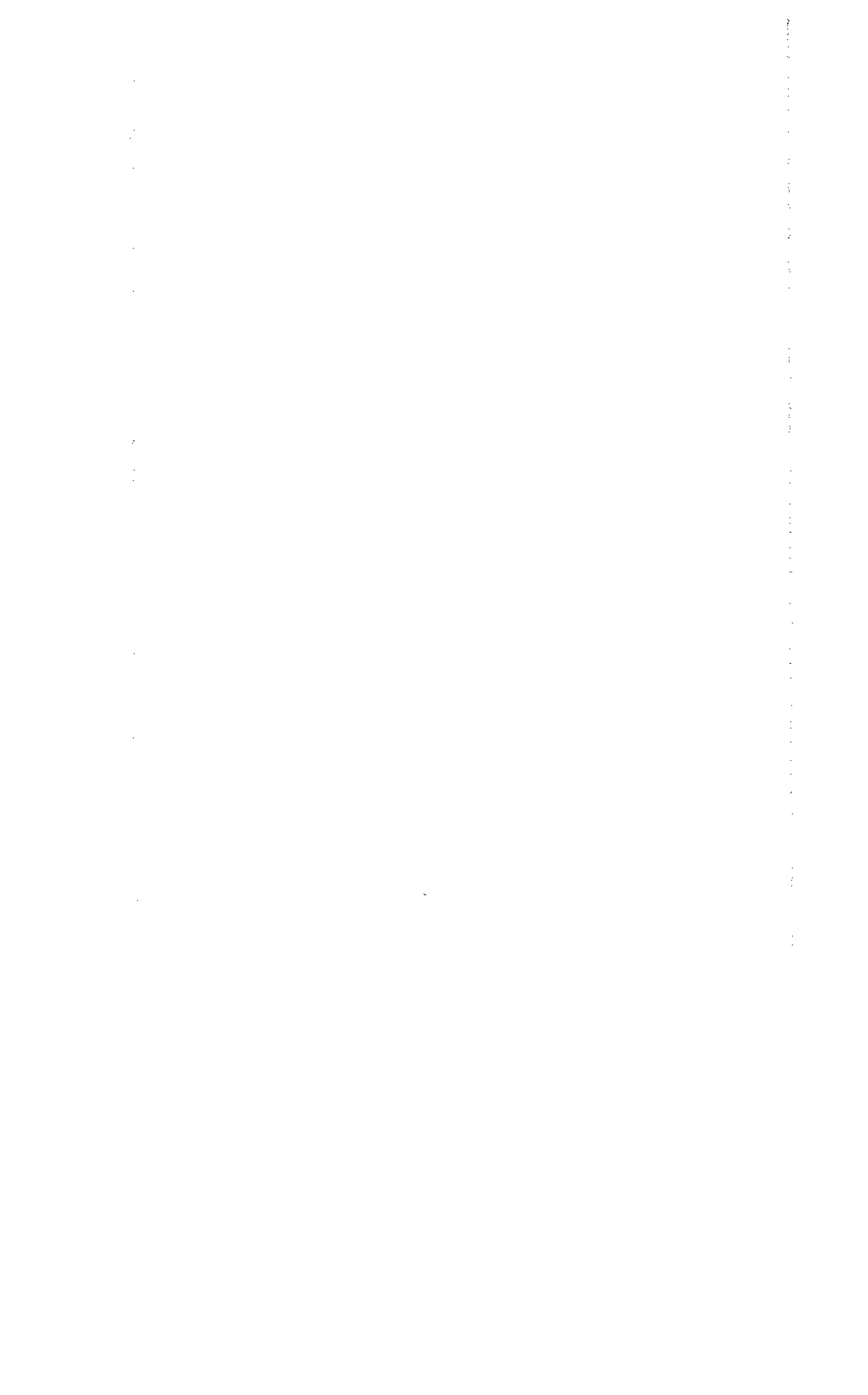
٢٠٠٩

DNTUR NET

دار اكتب للنشر والتوزيع



البرج العاجي



شعرت بشئ من خيبة الأمل وأنا أمشي في شارع فــؤاد، منصرفاً من مكتبة الأنجلو ، بعد أن سألت فيها عن رواية the catcher in the rye (الحارس في حقل الــشوفان) لجيروم ديفيد سالينجر، وقف البائع أمامي مبتــسماً ببلاهــة يستفسر عن معنى كل كلمة من اسم الرواية واســم المؤلــف وكأنما لم يسمع كلمة انجليزية من قبل أو أنه لــيس عــاملاً في مكتبة تبيع الكتب الأجنبية، ضجرت منه فانصرفت واشتريت كعادتي العدد الأسبوعي من مجلة نيوزويك من بسائع قريــب وجدته في نفس الشارع، أكملت طريقي إلى ناحية دار القضاء العالي ثم دخلت كافيتيريا الأميريكين لأشرب النسكافيه المعتاد وأنا أتصفح عناوين المجلة بعد أن خلعت نظــارتي الشمــسية ووضعتها على المنضدة أمامي ثم أخرجــت علبــة ســجائري

المارلبورو وأشعلت سيجارة، ظللت على هذا الحال قليلاً ثم انتهيت من الشراب ودفعت الحساب وقمت وغادرت المكان.

اليوم الأحد إجازتي من عملي في شركة ضخمة متعددة الجنسيات، في هذا اليوم أظل أقرأ الكتب التي اشتريتها في الأسبوع الفائت عليه، معظمها في الأدب ومعظمها باللغة الإنجليزية، لا يهمني ذلك، ولا يمثل صعوبة لي فأنا أجيدها كالعربية أو ربما أفضل، منذ أن تعلمت في المرحلة الثانوية وحصلت على شهادة الدبلومة الأمريكية التي أهّلتني للعمل في الشركة التي أعمل بها حالياً، والتي كما أتمنى قد أستطيع الترقي فيها بمرور الوقت لأعمل في أحد فروعها في الخارج.

أحياناً في هذا اليوم أقضيه أمام شاشة الكمبيوتر في الدردشة مع أصدقائي في الخارج، تعرفت عليهم عن طريق المنتديات أو غرف الدردشة، معظمهم أمريكيون أو انجليز، بعضهم يزور مصر باستمرار وأقابلهم عندما يحدث هذا، نقضي معاً أوقاتاً لطيفة لا يتوفر لي مثلها مع زملاء عملي وأقاربي ذوي الطباع البلدية، يحكون لي عن بلادهم الجميلة وتعليمهم وأسلوب حياتهم وثقافتهم وأدبهم حتى يمكن القول أن قلبي يتنقل فعلياً بين لندن وبيرمنجهام ونيويورك ولوس أنجليس، أحدهم كان اسمه ديفيد لم أره إلا من خلال الكمبيوتر إلا أنه كاد يبكيني مرة عندما حكى لي أنه على وشك أن يطرد من شقته بعد أن

فقدت والدته العزباء عملها في شركة انرون للطاقة التي أفلست محدثة أزمة هائلة، وهو لا يعمل لأنه لم يكن قد تخرج بعد، ولكن لحسن الحظ تمكنوا من حل المشكلة واستمرت حياتهم الهادئة في سعادة.

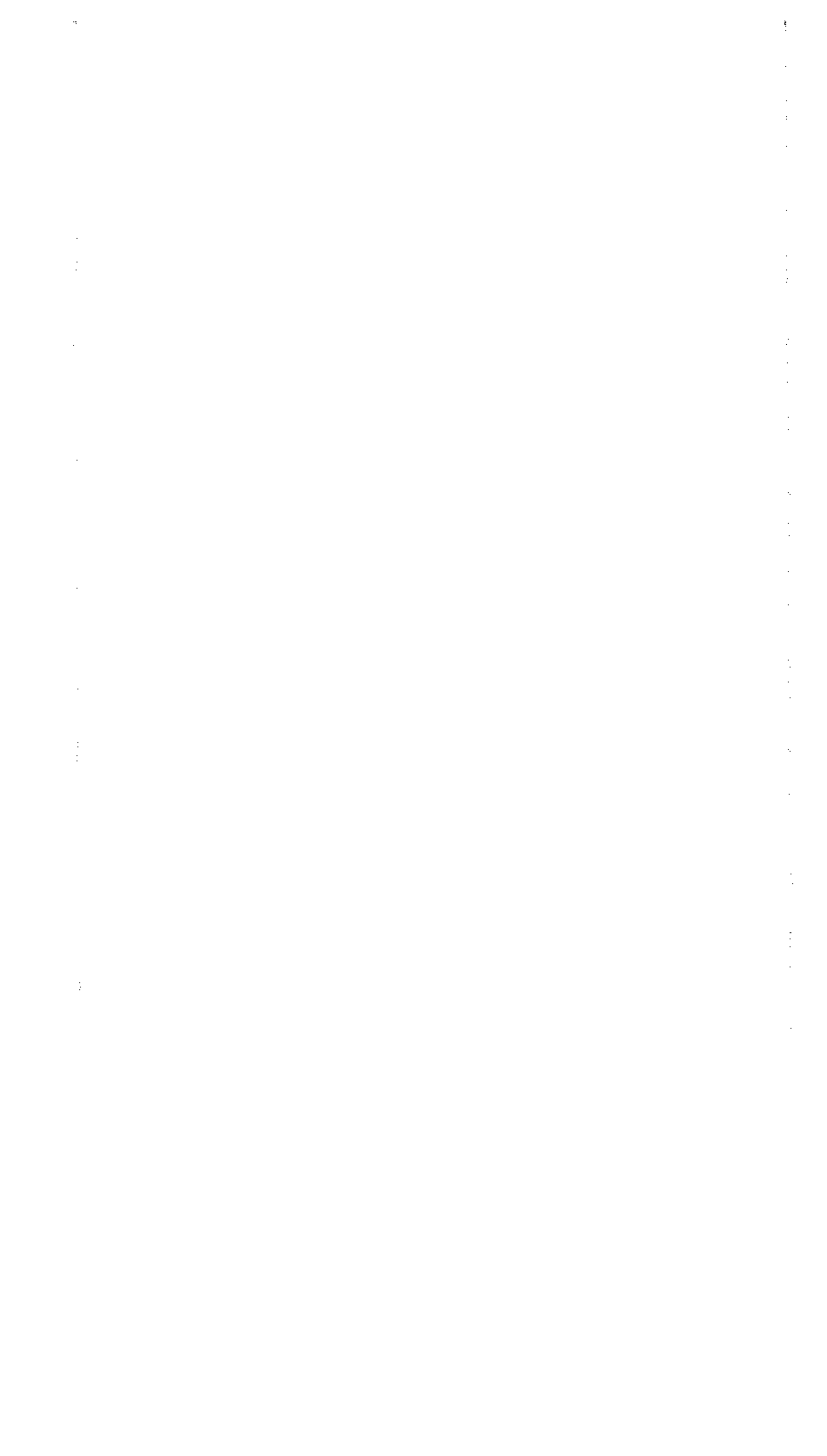
اتجهت إلى محطة المترو لأركب مترو الأنفاق إلى محطة الزهراء، كنت قد تركت سيارتي أسفل المبنى المطل على النيل الذي أسكن به، فالمرور يكون عادة في حالة مزرية في هذه الساعة حتى تستغرق على قدميك للوصول إلى مكان ما نفس الوقت الذي تستغرقه بسيارتك للوصول إلى نفس المكان، إلا أن هذه المرة التي استقللت فيها المترو علمتني ألا أكررها مرة أخرى، وأن بطء المرور المقزز داخل سيارة مريحة فيها جهاز كاسيت يشغل أغاني الهارد روك أو الميتال أفضل بكثير من الزحام البشع ورائحة الأنفاس الكريهة داخل عربات قطار متهالكة مكتوب على جدرانها من الداخل عبارات بذيئة غريبة المعاني.

وأنا في المترو بحثت بذهني عما أفعله في بقية اليوم بعد أن لم أحقق مرادي من هذا المشوار، سأقرأ قليلاً من آخر رواية اشتريتها لتوم كلانسي، قرأت أغلب رواياته وأحبها للغاية برغم ما يدعيه ضيقو الأفق من إساءتها المتعمدة للعرب والمسلمين، وما أن أعثر على إحداها حتى اشتريها وغالباً أنتهي منها في بضعة أيام فقط رغم أنها تتجاوز أحياناً الألف صفحة للرواية الواحدة.

وصلت إلى المحطة والمطر يتساقط بادئاً برذاذ خفيف، أمامي مسافة حوالي ربع الساعة ماشياً حتى أصل إلى المنطقة التي أسكن فيها على الكورنيش مواجهاً لجزيرة خضراء في النيل تدعى جزيرة الذهب، هي أجمل شئ في هذه المنطقة وربما في المدينة كلها، الجو بارد قليلاً ونسمات الهواء تداعب شعري المصفف إلى الوراء، هذا الجو الشاعري يثير خيالي، حتى أحياناً تتفجر مشاعري بقصائد رقيقة حاولت نشر بعضها في مجلات أدبية رفضت نشرها بحجة كثرة الأخطاء اللغوية فيها، وأحياناً كنت أكتبها بالانجليزية وأنشرها في بعض المنتديات الأدبية التي تعرفت منها على بعض أصدقائي وكانت تحوز إعجابهم كثيراً، الجو ليس بهذه البرودة رغم هذا الطفل المار بجانبي خارجاً من يسار المحطة حيث توجد على بعد قريب منطقة عشوائية متواضعة، محنياً رأسه ودافناً عنقه بين كتفيه المضمومتين إلى صدره المرتجف المغطى ببلوفر مهترئ أسفل قميص، وهو يجري بين قطرات المطر المنعشة المتساقطة، أمشي تحت المطر وخيالي ينمو أكثر وأكثر بأفكار رومانسية جميلة، لو يسقط من السماء الزرقاء بعض البرد أيضاً أو الثلج، سيكون ذلك رائعاً جداً. وصلت إلى منزلي بخطوات فرحة متراقصة، ووقفت أنتظر المصعد حتى جاء شخص آخر لا أعرفه ينتظر المصعد معي، هتف قائلاً "السلام عليكم" و لم أرد واكتفيت بابتسامة خفيفة

ضيقة، صعد معي حتى طابق ما ثم توقف المصعد وخـــرج، ثم ضغطت أنا على زر آخر في المصعد البارد الثلجي، لأصعد إلى شقتي في الطابق الأخير من البرج..

البرج العاجي.



الحرام



هطل المطر غزيراً على تلك المنطقة من مدينة الإسكندرية في أول الليل من يوم في شهر مارس. كان ذلك غير معتاد بالنسبة لذلك الوقت من العام وعلى الرغم من نظام الصرف الجيد في المدينة فقد تجمعت برك من الماء الآسن على جوانب الأرصفة حتى إنك عندما تمشي عليها يهيأ إليك أنك تمشي على ضفة ترعة في قرية ريفية سيئة التخطيط.

كان اليوم مستفزاً منذ بدايته بالنسبة لسائق الميكروباص، بدأ بخلاف سخيف مع زوجته أشعلته محاولاته المستمرة لإجبارها على إرتداء النقاب، منذ أن بدأ اليوم وأعصابه تشتعل فيها النيران، زوجته امرأة سيئة الطباع شديدة العناد لا تستحق زوجاً بمثل تدينه -أو هذا ما كان يعتقد- ما أن يذكر أمامها النقاب حتى تثور كبركان يمزق أوصال الأرض.

- الواد ما راحش المقرأة ليه..أنا مش قلت العيال دي لازم

تحفظ كتاب الله" بدأ الخلاف بهذه الجملة منه.

- يا خويا الواد في ثانوية عامة..ما عندوش وقت أنا خايفة علي مستقبله.

- أنا عارف مصلحته أكتر منكم..كلامي لازم يتسمع.

- حاضر يا خويا حاضر..بس اهدأ شوية..وكمان الواد الصغير بلاش الضرب والحزام والحاجات دي..ما تشدش عليهم قوي كده.. إيه يعني الواد نام من غير ما يصلي العشا.

إيه يعني؟ العيال دي لازم تتربى.

- ده واد صغير ما يفهمش.

- يعني إيه ما بيفهمش؟ الواد تم عشر سنين..أنا اللي هأتحاسب عليه ..الكلام ده مش هاقوله تاني.

تعملوا اللي بأقول عليه ..عليا الحرام من ديني ما أنتم نافعين طول أما انتم ماشيين بدماغكم.

- حاضر.

- وانت تلبسي النقاب لما تنزلي..وما تنزليش إلا لو رايحة لأمك أو رايحة السوق وإلا عليا الطلاق ما انت قاعدة في البيت ده.

- حاضر .

ثم خرج من منزله وقال وهو يغلق الباب:

- الله يخرب بيوتكم..عيلة غم .

نزل إلى الشارع.. الأرض موحلة بشكل يـــثير التقــزز في نفسه مثلما يثيره الصليب المعلق فوق الكنيسة الموجودة في نهاية الشارع.

الناس تمشي في الشوارع بأشكال غريبة..وجــوه عليهــا غضب الله، شارع غير ممهد سقط سهواً من خرائط المحافظــة ولم ينتبه إليه المسئولون في غمرة نشوتهم برزم الأوراق المالية في أدراج مكاتبهم الحكومية تتكدس شيئاً فشيئاً لتكون إمبراطورية من الفساد.

المطر يهطل وكأن السماء تبكي على ما وصل إليـــه حـــال البشر أو كأنها تعطي إنذاراً بالماء فوق رؤوس الناس يليه آخـــر باللهب يأتي ليمحق كل العصاة من على وجه الأرض البائسة.

شوارع تنتمي إلى تلك البلد التي يبغض..مصر المحروقة كما اعتاد أن يدعوها في ساعات غضبه التي استطالت حتى ملكت معظم حياته بعد أن أيقن أن الضحك يميت القلب، سمع كـــثيراً أن القلب المتصل بالله قلب ساكن وقـــور لا يعـــرف قهقهـــة السفهاء.

يمشي وتدوس قدمه ملصقاً انتخابياً لمرشــح مــن الحــزب الحاكم..تبدو على وجهه كما تبدو على وجوه رؤسائه نضارة وحيوية من دماء في الوجنتين امتصت فيما امتصوه من الشعب الذي انتخبهم..

- الله ياخدكم يا أولاد الكلب.

أثناء وقوفه في الموقف كان المطر ما زال ينهمر على رأســه حيث تنفس السماء والسحب عن غضب خفي، السيارة تحمل الركاب ولا زال البعض ناقصين.

- أيوه عبد الناصر..واحد عبد الناصر.

البعض يأتون ليركبوا من آن لآخر.

فتاة صغيرة لا يتجاوز عمرها العشرين عاماً تمر من أمامــه. بنطلون أضيق من أن تلبسه أختها الصغرى..وكان على ذلــك أفضل حالاً وأكثر حشمة مما ترتديه على نصفها العلوي، نظر إليها ملياً ثم إلى السماء المزمجرة وقال:

- كله منكم..كل ده منكم..ربنــا غــضب علينــا ..الله يلعنكم.

لم تكترث الفتاة كثيراً وواصلت السير بثقة تطل من عينيها ومشيتها التي صبت المزيد من الوقود فوق أعصابه المشتعلة من

أول اليوم.

- واحد عبد الناصر..واحد عبد الناصر..عبد الناصـــر يـــا أستاذ.

اكتمل العدد وبدأ القيادة وبدأ الركاب يجمعون الأجرة.

قال موجهاً الحديث للركاب:

- الأجرة جنيه يا اخواننا.

فصاح أحد الركاب وكان شاباً قائلاً:

- ليه يا عم الأسطى؟ ما طول عمرنا بنركب بنص جنيه.

فرد عليه:

- طول عمرك ده إيه؟ وبعدين البنزين غلي وقطع الغيـــار أسعارها نار..الدنيا مولعة يا اسيادنا.

رد آخر:

- ما هي مولعة علينا زي ما هي عليك يا ريس..ثم يعـــني انت يفرق معاك البنزين في ايه؟ ثـــلاث أربـــاعكم شـــغالين بالسولار وحتى إن كنت بتملأ بنزين معقول يعني الأجرة تغلى الطاق طاقين"

قال بعصبية:"

- و كده بقى..اللي مش عاجبه ينزل.

تدخل آخر كبير السن:

– خلاص يا ابني خلاص ..حقك علينا.

يا لسماحة الركاب وتبجحهم! إنك لا تحسن علي هـذه النقود، هذا حقي.

أسرع بالسيارة ووضع شريط تسجيل في جهاز التسجيل وبدأ تشغيله:

"فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ"

من سماجة الركاب أيضاً تعمدهم دفع عمـلات قـذرة أو متهالكة وبعضها من فئة كبيرة..يجب أن يحصل على فكة.

أثناء سيره بالسيارة كانت بجانبه ميكروباص آخر تبادل مع سائقا النقود.

"وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ"

وأثناء سيره وهو يعد النقود أبصر في اللحظة الأخيرة رجلاً مسناً يعبر الشارع على بعد أمتار منه..ضغط على الفرامل بحدة ليهدئ سرعة السيارة وهتف بصوت حانق:

– ما تفتح بقى... ي ... دين أمك.

إنه حقاً يوم سخيف، وواصل السير بأقصى سرعة ممكنة.


الضائقة



طرقات على الباب تصدر صخباً في الشقة الساكنة ذات الأنوار المطفأة، طرق عنيف مثل ما يفعل رجال الشرطة قبل اقتحام أوكار العصابات، تستيقظ من النوم فزعة وتنظر في الساعة التي تشير عقاربها إلى الخامسة مساءً، ترتدي الروب كيفما اتفق وتسرع إلى الباب ثائرة الرأس، تفتح فيبدو طفل قميئ أسمر اللون يبتسم ببرود ويقول: "فلوس الزينة".

ترد هي:

- زينة إيه؟.

يبدو عليه الاستنكار ويشرح بلهجة تعليمية:

- زينة العيد..النهاردة العيد وكل سنة وانت طيبة.

تنقده بضعة جنيهات على مضض ثم ينصرف بعد أن تغلق الباب ليجمع الأموال من باقي السكان ليشتروا بها بعض المصابيح الملونة غالباً ما تزيلها البلدية في مرورها خلال أيام من

تعليقها، أو ترتطم بها سيارات النقل المرتفعة لنقل أنابيب البوتاجاز عندما يتصادف مرورها في الشارع، وأحياناً يتكفل الأطفال الصغار بتدميرها ببنادقهم اللعبة التي يشترونها في العيد.

ترجع بعينين نصف مغمضتين إلى الفراش وتتدثر بالبطانية، يحيطها صوت منبعث من مسجد أسفل العمارة المجاورة، تستعد للنوم وبينما ترقى درجات السلم بعيداً عن اليقظة إلى عالم الأحلام، تدوي في المبنى وفي حجرتها كلمة "لا". تنتفض مذعورة، تنظر حولها ثم تحاول مواصلة النوم بأن تضع الوسادة فوق رأسها ولكن الصوت يستمر عالياً في اقتحام أذنيها:

"لا يا إخوة الإيمان.. ليس هذا سلوك المؤمنين أحباب رسول الله صلى الله عليه وسلم.. أصحاب العزة الذين قال الله تعالى فيهم: "وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ".. كنتم خير أمة أخرجت للناس ففتحتم شبه الجزيرة العربية والشام وإفريقيا والأندلس وآسيا حتى تخوم الصين.. فتح الله عليكم بسيوفكم التي أعزها الله بالإسلام ورفعتم راية الإسلام خفاقة فوق ديار الكفر وبلاد الضلال.. فلما تخليتم عن إسلامكم أبخسكم الله.. وأنظروا إلى ما يجري في بلاد المسلمين.. إن كل بقعة من بقاع الأرض أشرقت عليها شمس الإسلام ساعة من نهار يجب علينا تخليصها من حكم الطواغيت.. الجهاد يا مؤمنين الجهاد.. إن القدس مسرى رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أصبح يحكمها إخوان القردة والخنازير تساعدهم في ذلك أمريكا

الصليبية وكل عباد الصليب في بقاع الأرض. النصارى يحكمون بلاد الإسلام وهم الذين كانوا يعطون الجزية عن يد وهم صاغرون.. لعنهم الله.. الحكومة الفاسقة تنفي المجاهدين خارج بلاد الإسلام.. قتلوا مجاهدي الإسلام وتركوا الكفار والملاحدة يرتعون فيها ويعيثون فيها فساداً.. سجنوا المجاهدين الصابرين وكاهن النصارى ورؤوس الكفر في البلاد أحرار.. أما علمتم أن أعظم الجهاد كلمة حق عند وال جائر؟ فكيف بوال كافر يجعل من وزرائه الكافرين والفاسقين؟ كفى صبراً على الهوان وذل الكفرة للمسلمين.. كفى صبراً على حكومة تطبق الدستور الفرنسي وتترك شريعة الله.. الإسلام هو الحل يا مسلمين.. الإسلام هو الحل".

تواصل الدرس في المسجد يسمعه طوعاً أو كرهاً من يجاورونه، يئست هي من النوم فقامت تتفقد وجهها في المرآة، أعدت لنفسها كوباً من الشاي كي تفيق وترى أين تذهب، مضت أمها منذ ساعات لزيارة أحد قريباتها ورفضت هي الذهاب معها وفضلت البقاء للنوم في المترل لكرهيتها لتلك القريبة، ولكن الصوت قد حرم النوم على سكان تلك المباني أثناء درس العصر، ارتدت ملابسها، جاكيت أسود طويل وسترة تعلوها سلسلة ذهبية وسروال أزرق اللون، صففت شعرها الكستنائي الطويل أمام المرآة، ثم خرجت من البيت، حاولت صرف القطط الضالة النائمة باطمئنان أمام باب شقتها، تأففت وهي تزيح جانباً المشاية الصغيرة الملوثة ببراز

القطط، وتركل بقدمها قطة متحفزة كشرت عن أنياها الصغيرة، الحاجة عطيات التي تسكن في الشقة المقابلة دائمة الإحسان على القطط والحيوانات عامة، تعطي لها بقايا الطعام وما يتخلف من تنظيف الدواجن أو فضلات اللحوم، ولكنها لا تحب أن تفعل ذلك إلا أمام باب شقتها هي، هبطت درجات السلم لتترل إلى الشارع.

تمشت في الحارات الضيقة لتصل إلى موقف الميكروباصات، تحاذر على حذائها الجلدي عالي الكعب أن تلوثه دماء الحيوانات المذبوحة في الشوارع وتتعثر مرات وهي تحاول ذلك، تواصل الطريق الذي يعترضه بالأمام بعض الشباب سوقيي الملامح ، ذوي ثياب تبدو جديدة لكنها فاسدة الذوق، تتهادى فوقهم سحابات من دخان مختلف الروائح والألوان، يضيقون عليها الخناق، يقتربون منها وعلى وجوههم ابتسامات خبيثة، يمد أولهم يده نحوها تتحسس طريقها في الظلام إلى الهدف الثمين الذي أحكموا الحصار حوله، تنطلق راكضة كأرنب يطارده في دغل قطيع من الضباع البرية، تطير ساقاها فوق الأرض دون أن تلمساها إلا مرات قليلة، تجري نحو الموقف مستعيدة ما حدث... نفس ما حدث منذ شهرين وعشرة أيام بالضبط، في وسط المدينة، زحام لم تره من قبل في حياتها، الأجساد تحتك ببعضها ولا أحد يدري ما الذي يحدث، حركة غير طبيعية وسط الكتل، عشرات يتجهون نحوها مطلقين أصوات حيوانات منتشية حان موعد تزاوجها،

عشرات الأيدي تمتد مخترقة الهواء والفراغ الضيق لستلامس جسدها، تحاول أن تجري في كل اتجاه ولا تقدر أن تتحرك لمتر واحد، الكل يحيط بها، فوضى من المشاعر تجتاحها وهم يطرحونها أرضاً، تنتفض وتركل بيديها ورجليها ولا شئ يتغير، الأيدي تواصل العبث بكل الصور بكل الأشياء، تسقط فوقها الجثث وترتطم بها، الأصوات تختلط في جلبة عديمة المعنى تفسر منها كل لحظة صوت قماش ثيابها يتمزق وأصوات أخرى شهوانية للعاب يسيل على الأرض، تضرب بيديها كل ما أمامها، النور يخفت ويختفي ويدخل كل شئ في ظلام تام يغلف كل الأجساد المنهمكة في الصراخ الحيواني، ثم...

لم تدر بنفسها إلا وهي في البيت، مكثت فيه لم تخرج منه أسبوعاً كاملاً لم تتناول فيه الطعام حتى صارت كجثث الموتى في المشرحة، كلفها ذلك الانعزال وظيفتها، ظلت تبحث حتى عثرت على وظيفة أخرى بدخل أقل بعد أن أفاقت من ذهولها فاقد الحياة.

وصلت إلى الموقف وركبت ميكروباص متجه إلى إمبابة، دفعت جسدها إلى أحد المقعدين الأماميين المجاورين للسائق ذي اللحية الكثة ثم دفعت الأجرة، ستذهب إلى ساقية الصاوي في الزمالك علها تصادف هناك أحد معارفها أو أصدقائها في أي ندوة أو أمسية من الأمسيات التي تقام هناك، وإن لم تعرف أحداً فسوف تكون قد روحت عن نفسها على الأقل بأي شئ تسمعه هناك.

كان صوت الكاسيت مرتفعاً في الميكروباص، صوت رجل يلهث ويلتقط أنفاسه بين هذه الجمل:

"... بابا الفاتيكان أو بابا روما الكاثوليكي شأنه كشأن الأوروبيين فى همجيتهم فى كفرهم وضلالهم فى بغضهم للإسلام ونبى الإسلام والأمر لايختلف حاله عن حالهم وما يختلف شأنهم قديما أو حديثا (قد بدت البغضاء من أفوههم وما تخفى صدورهم أكبر)..." ثم يتوقف لحظات يسعل ويتمخط ويبتلع ريقه ليتابع: "...(لاتتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض) هم الذين ساعدوا التتر فى وقت من الأوقات على انتهاك حرمات هذه الأمة وعلى استباحة البلاد والعباد، هم الذين شنوا الحروب الصليبية على هذه الأمة وما محاكم التفتيش منها ببعيدة، هذه شعوب همجية، همجية نتيجة الكفر الذى يعملون به وكل إناء بما فيه ينضح..."

لن يوجد في ساقية الصاوي شئ ممتع هذه الليلة، لم أر في جدول أنشطة الشهر شيئاً يشدني، ربما أتمشى قليلاً في شوارع الزمالك، ثم أتفقد المكان، قد أجد فيه أي شخص أعرفه.

"... ولابد من قراءة الواقع قراءة صحيحة، نحن لم نكتشف أن بابا روما يكن عداء لرسول الله صلى الله عليه وسلم، هذا معلوم ولكن أن يتجاسر ويتجاهر على مثل هذا النحو وخصوصاً ونحن على أبواب الشهر الكريم وكأنه يجدد سلسلة

أسلافه وما كانوا يفعلونه مع المسلمين فى رمضان على جهة الخصوص، وكأنهم يأبون إلا تذكيرا بعلو اليد عليك بقهرهم لك حتى فى الأيام المباركة فى مواسم الحج ورمضان وأنت تستقبل الشهر الكريم يخرج هذا الخبيث بمثل هذه الكلمات الساقطة.... "

لماذا أذهب إذا كنت ضائقة بالمكان؟ ومن سأقابل هناك؟ كل من عرفتهم فيه بعض الحمقى يتظاهرون بأنهم مثقفون، إما أغنياء يريدون نوعاً من التميز الاجتماعي أو فقراء يريدون ستر عريهم بادعاء العلم، لن أذهب، قد أجلس في أي كازينو على النيل في الزمالك.

صوت الرجل يختنق ويبدو وكأنه يحتضر ولكنه يتابع: "... هذا هو شأنهم وحالهم بل حتى مع نبيهم عيسى صلوات الله وتسليمه عليه رفعوه إلى مصاف الألوهية وإلى مصاف البنوة ثم يزعمون أنه صفع على قفاه وأن اليهود أعداءه قد ألبسوه أكليل الغار شتموه وقالوا له يا بن كذا كتبوا ذلك بأيديهم وهذا هو شأنهم معتقد كله خراب كله دمار فإذا ما وصفوا الرب جل في علاه بنعوت الشر والسوء هم الذين قالوا المسيح هو ابن الله وقالوا ثالث ثلاثة، مقولات كفرهم به سبحانه (لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة).

(لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم)..."

وماذا أفعل في الزمالك؟ لست في السبعين من العمر حتى أمشي في الشوارع بلا هدف أو أجلس على كورنيش النيل أتأمل النهر وأسترجع الأيام الجميلة الماضية. ماذا أفعل هناك بدون أحد معي؟ ولماذا أخرج بمفردي؟ ولماذا أجلس في هذا الميكروباص السخيف؟

"...ثم شأهم مع بني جلدهم ومن كان على دينهم أيضاً لايقل، يكفر بعضهم بعضاً فالكاثوليك هؤلاء يكفرون الأرثوذكس كما يكفرون أيضاً البروتوستانت ودائما ما يتلاعنون بل ما اجتمعوا مجتمعا إلا و تلاعنوا فيه بل لو اجتمع منهم عشرة فى مجلس لقاموا عن إحدى عشر قولاً، هذا هو شأهم وهذا هو اضطراهم وهذا هو اختلافهم لا يعرفون خيرًا لا يعرفون سلاماً هم أهل للإرهاب الأسود يمارسونه وكانوا يمارسونه وما زالوا يمارسونه حتى يومنا هذا..."*

هتفت :"بس..نزلني هنا".

توقف السائق وترجلت من العربة، في شارع الإسعاف، هي الآن في وسط المدينة، يمكنها أن تذهب إلى إحدى السينيمات ولكنها عادة مزدحمة جداً في هذا الوقت، كما أنها لا تحب أن تدخلها بمفردها، يمكن أن تذهب لتتفقد المكتبات، سوف يكون معظمها مغلقاً ولكن لا بأس، يمكنها أن تشاهد المعروض في الفاترينات فقط، قررت الذهاب لمكتبة قريبة في أحد

الشوارع المتفرعة من قصر النيل، كانت تنشر عناوين رائدة في الأدب العالمي وبخاصة روايات دوستويفسكي، آخر مرة ذهبت إليها كانت منذ شهرين، انفرجت أساريرها قليلاً عندما تذكرتها ومشت مسرورة إلى هناك حتى وجدت نفسها أمام فاترينة تعرض كتباً بعناوين عن محنة الإخوان المسلمين في سجون عبد الناصر وعن أهل الذمة وعن فرضية النقاب وأهمية اللحية، نظرت حولها بحيرة وتأملت ملامح الشارع، إنها متأكدة أنها في المكان الصحيح و لم تخطئ العنوان، نفس المقهى المواجه للمكتبة ومحل الأثاث في الطرف الآخر للشارع القصير، رفعت عينيها إلى اللافتة، العنوان تغير، وجدته "مكتبة الحق الإسلامي الإسلامية"، نكست رأسها وانسحبت بهدوء تجرجر قدميها من الشارع، قادها قدميها إلى ميدان طلعت حرب الذي يحمل أعز الذكريات، رأت الكافيتريا الشهيرة جروبي، فاطمة كانت تحب هذا المكان كثيراً، تفضل الذهاب إليه معها أيام الخميس عندما كانتا في الكلية معاً، لم تكن من الغنى بحيث تتحمل تكاليف التردد عليه ودفع الحد الأدنى للفاتورة في الكافيتريا أكثر من يوم في الأسبوع، كثيراً ما تجولت معها في هذه المنطقة حتى حفظتها تقريباً، هي التي عرفتها على ذلك المبدع العبقري الذي كانت تجهله، القادم من بلاد بعيدة ليكشف في نفوس البشر عوالماً أبعد وأعمق، دوستويفسكي، منذ عرفتها اهتمت بالأدب كثيراً مثلها، ومن هذا الوقت أحبت القراءة والاطلاع رغم أنها كانت فتاة عادية ليست

بالمثقفة أو المتبحرة في العلوم.

تمثال طلعت حرب شامخ وفي يده القوية الحازمة وعد بمستقبل مشرق، لم يأت بعد، دخلت إلى الكافيتريا مسرعة وكأنها تفر من مطر غزير يتساقط بالخارج، جلست على إحدى المناضد الشاغرة بين المناضد الأخرى التي يجلس على مقاعدها رجال ذوي لحى مشعثة وجلابيب بيضاء قصيرة تحتها سراويل بنفس اللون لا تكاد تصل إلى الكعب.

بياض الجلابيب في المكان يمتزج ببقع سوداء لعباءات وبراقع لنساء منتقبات في باقي المناضد، فاطمة كانت تفضل ارتداء الملابس بألوان فاتحة تناسب بشرتها قمحية اللون وقوامها النحيل وتكتمل أناقتها بإيشارب غالباً ما يكون ذا لون داكن يضفي مسحة حزينة على الألون الزاهية، كثيراً ما كانت تقف معها منبهرة بها تكاد تصفق لها إعجاباً وهي واقفة أمام الأخوات تجادلهن ولا يقدرن عليها، فينصرفن في كتلة سوداء واحدة من العباءات ضاجرات من كلتاهما.

النادل يرى ماذا يطلب الملتحون، ثم يتحول إلى جهاز التلفاز ويحوله من برنامج الصالون الثقافي على قناة دريم إلى قناة أخرى يطل منها الشيخ المعروف، بقامته الطويلة وكرشه الضخم ولحيته البيضاء التي تصل إلى صدره المغطي بجلباب أبيض كجلابيب الجالسين وعباءة عريضة على كتفيه وتجثم على رأسه عمامة بيضاء ذات رباط من الخلف.

أنفاسها تتردد في صدرها بجلبة لا يسمعها سواها، تشعر بأن المكان ضائق عليها، قوة غامضة تطبق على قلبها بوحشية، لو أن فاطمة هنا الآن، لم ترها منذ فترة، الحياة فرقت بينهما لمدة طويلة، تخرج تليفونها المحمول وتحاول الاتصال بها، ضوضاء الجالسين لا تسمح لها بأن تسمع شيئاً، تخرج من المحل عازمة على أن ترجع إلى بيتها لتنام نوماً عميقاً لن تترك أحداً يوقظها منه إلى اليوم التالي، لن تخرج من البيت إلى أن تذهب إلى عملها الجديد بعد أيام لتظل فيه نصف مدة اليوم، خرجت من المحل تحاول إعادة الاتصال ولكن الجهاز لا يستجيب معلناً لها أن الرقم المطلوب مرفوع من الخدمة، تزفر بضيق خانق وترسم على صدرها إشارة الصليب في صمت وبعدها ترتطم بشدة بسيدة في عباءتها وبرقعها الأسودين، يبدو من صوتها وهي تلعنها أنها شابة في مثل سنها تقريباً..

وربما حتى كانت تشبهها ايضاً...

***النص بين علامات التنصيص مأخوذ حرفياً عن خطبة بعنوان "بابا الفاتيكان أسلم تسلم" للشيخ سعيد عبد العظيم.**

الواطيء

صاح هذه قبورنا تملأ الرحب فأين القبور من عهد عاد؟

خفف الوطأ ما أظن أديم الأرض إلا من هذه الأجساد

أبو العلاء المعري

***

كنا فصرنا قطرة في عباب
عشنا وعدنا ذرة في التراب
جئنا إلى الأرض ورحنا كما
دب عليها النمل حيناً وغاب

من رباعيات الخيام

***

الأنفاس تتردد بسرعة، تدخل وتخرج في حلقيهما كإعصار صغير حن حنونه، حبيبات صغيرة من العرق الملحي على جبهته تتدحرج ككرة ثلج تسقط من أعلى جبل، تتجمع سوياً وتكون قطرات أكبر تميل لتسقط على جبهتها النائمة باستمتاع تحت شفتيه، ونشوة ذات غليان تلف جسديهما الماثلين فوق المكتب الخشبي، تغطي المساحات التي كشفا عنها الملابس من جثتيهما.

ينهمكان في ما هما فيه محاولين ألا يعلو الصوت فيغادر جدران الحجرة الضيقة، دقائق من المتعة تعوض خطر الانفضاح

وتلهيهما عن قول هذا وتغامز ذاك، الفرصة تسنح لهذا أحياناً عندما تكون هذه الغرفة شاغرة ويكونان هما وحدهما، علاقتهما معروفة لمعظم الزملاء الذين كان بعضهم يضحك ضحكات صفراء خافتة عند مرآهما معاً، فيما كان البعض الآخر يقلب شفتيه إزدراءاً منهما سراً وليس أمامهما أبداً تجنباً للمشاكل، وأخيراً كانت هناك فئة قليلة تعاملهما باحترام وتدعو لهما بالهداية.

تقع عيناها المنتشيتان على مقبض الباب وهو يدور وفرجة من الباب تظهر وتتسع، تنسل من تحت جسده بخفة وسرعة قطة أفزعها صوت طلق ناري قريب، تسحب عليها البنطلون سريعاً وتغلق الباب بارتباك في وجه الطارق الذي يسألها ما إذا كان الدكتور شريف موجوداً في الحجرة أم لا، ينصرف مستريباً وهو يهرش رأسه ذات الشعر المشعث كمعظم الطلبة في كلية الطب هذه، بينما تقف هي وراء الباب تعدل من وضع ملابسها وتتأكد من ربطة الإيشارب، والمفاجأة لم تفارقه بعد يقوم مذهولاً من على المكتب ويحكم ربط حزامه الجلدي، يبتسم لها ابتسامة مرتبكة ترد عليها بنظرة إلى الارض ثم ينصرف هو أولاً من الحجرة بعد قليل من عبارات التدليل والاتفاق على المقابلة عندما تلوح الفرصة مرة أخرى، يخرج هو

من الباب ويلمح ابتسامة صفراء على شفتي عم عاطف العامل بالمشرحة المجاورة لهذه الحجرة، تموت الابتسامة فور أن تدركها عيناه، عاطف هذا خبيث للغاية برغم ما يبدو عليه أحياناً من بله، قد يكون هو الذي وجّه ذلك الطالب المأفون للسؤال عن دكتور شريف هذا في هذه الحجرة بالذات، كل هذه المحاولات من أجل أن يمنعه من اقتسام النقود معه ولكنه لن يفلح، فأحمد عنيد جداً، الطلبة يدفعون الرشاوى لعمال المشرحة من أجل تسجيل حضورهم عندما لا يحضرون الدرس العملي، هذا معروف، فعندما تكون المجموعة المفترض أن يشرح لها الدرس مكونة من مائة وخمسين طالباً لا يحضر منهم إلا عشرون فقط، يجب أن تفهم أن هناك طرقاً أخرى يدبرون بها أمر الغياب وأن هذه الطرق مضمونة ومأمونة العواقب، كل هذا معروف، ولكن أحمد هو أول دكتور مدرس فكر في أن يقتسم أموال الرشاوى هذه مع عم عاطف مقابل سكوته على ما يرى، فهو أذكى من أن يرى نهر الأموال هذا يجري تحت عينيه ويتركه لعاطف وهو يستطيع الاغتراف منه، تبادل بعض الكلمات مع عاطف مطالباً بنصيبه من غنيمة اليوم، عاطف كالعادة يحاول إقناعه بأن أغلب الغياب اليوم هم من تغيبوا بالفعل بدون أن يدفعوا شيئاً ولكنه يصمم على معاينة كشف الغياب بنفسه ليعرف عدد الغائبين الحاضرين، ويحذر عاطف من التلاعب معه

مرة أخرى وإلا انتهى الأمر إلى ما لا يحمد عقباه، فهو ليس طيباً مثل بقية زملائه الحمقى بل هو "صايع وعارف اللي فيها".

وعلى العكس من معظم الزملاء، كان أحمد حاذقاً في فن التعامل مع البشر وكسب ودهم وثقتهم، فكان مثلاً أكثر من يجيد التعامل مع هؤلاء العمال الذين يتظاهرون بالبله وعدم معرفة أي شئ بينما يعرفون من أمور الكلية ومسالكها أكثر مما يعرف أي معيد من الذين يتذاكون ويتأمرون عليهم، حتى أنه استطاع توفير بديل آمن بعد أن سُجِن جمعة، العامل المسئول عن الجثث في المشرحة، فعدد الجثث في المشرحة غير كاف لآلاف الطلبة الموجودين بالكلية، وهي تتعفن بمرور الوقت ويجب استبدالها بأخر بمعرفة مصلحة الطب الشرعي، ولكن هذا غالباً لم يكن يحدث بالشكل المطلوب، كما أن الأساتذة في الدروس الخصوصية والطلبة أيضاً كانوا يحتاجون بصفة دائمة إلى الجثث والهياكل العظمية، كل هذا كان يعالجه جمعة عن طريق من يعرفهم من لصوص المقابر والحانوتية المرتشين، ولما قبض على جمعة أثناء سرقة مقبرة قام بها مع هؤلاء، حدث عجز هائل في الجثث المتوافرة في المشرحة وارتفعت الأسعار بشكل منقطع النظير، ولما كان أحمد عالماً بأسرار جمعة القابع الآن في السجن، استطاع أن يكون هو واسطة الخير بين التجار خارج الكلية وبين الزبائن داخلها، مع اتخاذه الاحتياطات اللازمة لمنع كشف أمره فقد تعلم جيداً من رأس الذئب الطائر،

جمعة الذي كان سقوطه متوقعاً بعد أن فاحت رائحته أكثر من اللازم، كان هو مجرد جسر فحسب بين العرض والطلب يحصل على عمولة لا بأس بها تساعده في أحوال المعيشة إلى أن يأتي من يقوم بهذه المهمة ويتحمل مخاطرها كاملة، فقد اكتفى بنقود أقل مقابل أمان أكثر يضمن عدم افتضاح أمره وضياع مستقبله.

ولأشياء مثل هذه أصبح هو رجل المهام الصعبة الذي يحبه الكبار ويثقون فيه ويتنبأون له بالمستقبل الباهر، ولهذا يحبه الكثير من زملائه الذين قد يشمئزون مما قد يعلمونه عنه أحياناً، ولكنهم سرعان ما ينسون، فقد امتلك القدرة على جعل الناس يحبونه أو على الأقل يقبلونه رغم كل عيوبه، كما أن الكثيرين لهم عنده مصالح يريدون قضاءها وهو الكفيل بكل المهام التي لا يجيدها أقرانه.

بعد أن دفن الغنيمة في أعماق جيوبه، استوقفه وهو سائر في الردهة الطويلة أحد العاملين يعلمه بأن الدكتور بهجت يطلبه، وما أن سمع باسم الدكتور بهجت حتى انفرجت أساريره عن آخرها، فهو المشرف على رسالة الماجستير وقد تمكن ببراعته المعهودة من كسب وده حتى أصبح تابعه المقرب، ففي مجلس القسم لا ينطق بكلمة تخالف ما يريده الدكتور، يدافع عنه أمام زملائه ويرد غيبته أمام أي كائن كان ولا يخشى في ذلك أحداً

فالدكتور هو رئيس القسم، صاحب الكلمة العليا فيه، ولكن حذره التقليدي منعه من اكتساب عداوات مقابل صداقته للدكتور بهجت، فلم يكن يستفز أحداً من خصومه المعروفين بكراهيتهم له، فهو يعلم أن هذا المنصب زائل وقد يصير إلى أي شخص آخر بعدها ولهذا التزم بأن يحبه الجميع، فإن لم يستطع أعجزهم جميعاً عن أن يكرهوه، كما كان مطيعاً جداً لسيده، اعتنى بولديه اللذان يدرسان في نفس الكلية أيما عناية، وتابعهما في دروسهما بدون أي مقابل سوى رضاء والدهما عنه، ذلك الأمر المطاع الذي إن تشبث به ربح وإن عاداه لم يقدر على شئ ولو كان أعلم أهل الأرض بالطب، أنهك لسانه المدرب على عذب الكلام في مديحه، وحده وأمام الآخرين، حتى ألف قصائد شعر في مناقبه وعبقريته وحسن شيمه، ناهيك عن الهدايا التي لا تنقطع للدكتور من مناسبة لأخرى، كلفته آلاف الجنيهات على مدى سنتين كان فيهما الذراع الأيمن للدكتور بهجت، يساعده في كل شئ وحتى في إعداد كتبه ومادته العلمية دون أن يتقاضى شيئاً، كان متعجلاً في أمر هذا التقرب فأغلب الظن أن الدكتور سوف يخرج من رئاسة القسم بعد عام واحد إلا شهرين تقريباً، ولهذا أراد أن يعتمد الرسالة قبل أن يخرج، فتوج تقربه بالدكتور بخطوة تربطه به إلى الأبد، وتقربه منه ومن نفوذه وسلطته التي مهما ضعفت بعد خروجه

من الرئاسة فهي ضخمة بفضل معارفه الكثيرين، كان الدكتور يريد الزواج، فهو مطلق منذ عشرين عاماً تقريباً، جرب الزواج مرة ولم تعجبه التجربة وسأمها فهجرها حتى واتاه الهوى إلى معاودتها مرة أخرى حتى يحصل على بعض التسري عن نفسه في هذا السن وينال شيئاً من ملذات الحياة في وقت يبدأ فيه الحياة من جديد، بعد أن أمضى سنينه في مجال العلم بدون أن ينجز فيه شيئاً إلا الكثير من المال ومركز طبي فخم في حي راق، انتهز أحمد الفرصة وعرفه على شقيقته، وطالما سار موضوع الارتباط على ما يرام، لن يستطيع الدكتور بهجت رفض طلب لأخي من ستصبح زوجته، ساعتها سيأخذه معه في كل مصالحه، سيستخدمه عنده في مركزه الطبي المعروف، وسيعرفه على أصدقائه المهمين ذوي السلطان، كما أن الدكتور قد بدأ يستجيب لطلبه بأن يكتب له خطاب ترشيح لبعثة في أي جامعة في الخارج، وهكذا تتحقق بعض طموحاته اللانهائية، منذ أن كان طفلاً وهو يتمنى أن يكون طبيباً شهيراً يسافر للخارج يلقي الندوات ويعيش في فيللا فاخرة، يحصل على أعلى الجوائز العلمية ويكتب اسمه في مختلف كتب الطب بكل اللغات الحية، وهذا ما مكنه من تخطي كل صعوبات الدراسة بتفوق مبهر، كان يذاكر لمدة تصل إلى عشرين ساعة في اليوم بالنسبة لأيام الامتحانات، ولهذا فبحث الماجستير الخاص به

يعتبر عبقرية علمية بكل المقاييس إذا قورن بزملائه الآخرين الذين يدرسون ويُدرّسون كتباً تغيرت محتوياتها منذ حوالي ربع قرن أو أكثر، إلا أن شيئاً لم يكن يضمن أن يقبل رجل مثل الدكتور بهجت البحث الذي يفتح عليه أبواب النجاح ويمطر عليه النقود التي كان حريصاً على كسبها رغم أنه لم يكن فقيراً إطلاقاً، وهكذا سعى كل تلك المساعي لضم الدكتور إلى صفه وهكذا صار موقفه الآن.

إلا أن كل خيالاته تلك سقطت عليها مطرقة هائلة فسحقتها عندما سأل العامل: "عايزني ليه؟" فأجابه بأن العفاريت كانت بتتنطط في وشه وكان تقريباً لا يميز ما يقوله، أخذ يفكر ما يمكن أن يكون سبب غضبته الضارية تلك، منذ بعض أيام حدثت مشادة بينه وبين مصطفى ابن الدكتور بهجت، لم تكن خطيرة ولم يهنه فيها إطلاقاً، فالولد غبي جداً وممل وهو في ذات الوقت يتعمد التذاكي والاستظراف وخاصة عندما تكون معه فتاته المفضلة نانسي التي لم يكن بينها وبين الجمال إلا صلة بعيدة جداً لا تذكر، كل ما حدث هو أن أعصابه القوية أفلتت منه فانطلق لسانه بكلمتي لوم وتوبيخ لمصطفى الذي لم يسكت لهذا أبداً، خاصة وأن كرامته أمام صديقته قد أهينت كما أحس، فكانت مشادة صغيرة لا يظن أن الدكتور بهجت يوليها اهتماماً ، فمنذ متى كان ينصت لأبنائه إلى هذه الدرجة؟ إنه لا يعلم عنهم إلا القليل.

أنب نفسه كثيراً على فقدانه لشعوره في الحديث مع ابن أستاذه مما يعرض مستقبله العلمي كله للخطر، ولكن أليس من حق الإنسان أن يظهر بمشاعره الحقيقية للحظة واحدة؟ ألا يستحق لحظة ينتهي فيها عن تدليل هذا الفتى المأفون ويعلنه رأيه فيه بصراحة؟

صعد إلى مكتب الدكتور وجلاً، طرق على الباب ثم فتحه ملقياً السلام بابتسامة قلقة خارجة من جوف يرتعش كشحاذ نائم في شارع تهب عليه نوة ساحلية، ميز على الفور عيني الدكتور المحتقنتين وكوب القهوة الكبير أمامه وحبوب الأسبرين، لا ينقصه إلا هذا الآن، الدكتور مرهق من شراب حتى الثمالة بليلة الأمس، وسيفرغ فيه هو كل آلام رأسه التي تهوى عليها المطارق بلا رحمة، وفي نفس اللحظة لاحظ وجود زميله حسن في المكتب وتساءل ماذا أتى بهذا القذر هنا الآن؟ تطايرت الكلمات اللائمة المعنفة من فم الدكتور بهجت كرذاذ مريض بالسل، تشكيك في مؤهلاته العلمية وقدراته البحثية وحتى قواه العقلية نفسها، تخللتها بعض الألفاظ البذيئة ومختلف أنواع الشتائم، وكلما فتح أحمد فمه بالدفاع انهالت عليه الألفاظ بانفعال أكبر وبذاءة أكثر، تذكيها كلمة كل حين من حسن الواقف بخبث إلى جانب الدكتور، ينعق كل دقيقة بكلمة تبدو بريئة تماماً ولكن الدكتور يهتاج على أثرها ويوسعه

تقريعاً لا يستطيع الإفلات منه، وفي غمرة جنونه أخرج خطاب الترشيح من درج مكتبه ومزقه، أمام أحمد وحسن الذي تباعد ركنا شفتيه قليلاً في ابتسامة شبح، وأمام من تجمع على الضجة من الزملاء. خرج من المكتب صامتاً مكفهر الوجه تحيطه نظرات المواساة والشماتة واللامبالاة من الزملاء، لاعناً في سره الدكتور بهجت وحسن وأخته التي لابد أن كل هذا كان بسببها، ليس هناك تفسير إلا هذا، الأمر أكبر من مشادته مع مصطفى، لقد أرقت أخته فكر الدكتور بكلمة حادة فردها هو إليه ألفاً، لابد أنها ثارت في وجهه كالعادة كلما حاول إمساك يدها أو مس جسدها أو اختلاس قبلة منها في زيارته لمنزلهما أو في خروجاته القليلة معها التي لم توافق عليها إلا بعد أن كادت روحه هو تطلع ليقنعها أن تكرم معاملة من بيده مستقبل أخيها، ولكن أفكارها السخيفة لا تزال تسيطر عليها، كثيراً ما وجهتها أمها أيضاً وقالت لها ألا تتدلل لهذا الحد على عريس لن تجد مثله بسهولة أو ربما لن تجد أبداً، فهي ليست مليونيرة وليست ملكة جمال العالم حتى يطرق بابها كل يوم رجال مثل الدكتور بهجت، ولكن ماذا بوسعه أن يفعله لغبائها وإصرارها على أفكار نسفها الزمن نسفاً ورفضها العناية بمستقبل شقيقها الوحيد؟ سيكون حسابها معه عسيراً وأعسر مع والديه الذين قد يقتلانها جزاء إضاعة رجل مثل هذا من أيديهما، صبراً حتى

ينتهي فقط ويجد حلاً لكل هذه المشكلة المعقدة التي سقطت على رأسه من السماء الغائمة.

هل ينتهي حلم هكذا؟ هل تفنى آمال بمجد واسع وشهرة عريضة ومستقبل يبهر الناظرين في مجال رائد، بحث نابغ لعملية جراحية عبقرية قد تدرج اسمه في كافة مراجع الطب وتعالج مئات المرضى بكل فعالية، هل يتلاشى كل هذا بسبب مشاجرة مع رجل معتوه سكير؟

لن يستسلم أبداً، منذ بدايته وهو يمتلك القدرة على التنبؤ بأسوأ ما يمكن أن يحدث، وله لكل شئ خطة، وخطة بديلة إذا فشلت الخطة الأولى، فلم يكن ليصل إلى كل ما وصل إليه ولن يصل إلى ما يريد الوصول إليه لو أنه كان يتوقف ليبكي كلما أهانه مغرور غبي يملك سلطة إذلاله، تعود هو تلقي الصفعة ثم نسيانها حتى لا تفسد عليه كرامته القدرة على مواصلة الحياة، أخذ يفكر وهو سائر في الرواق الطويل في مبنى قسم التشريح في ما سيفعل الآن، من المؤكد أن الدكتور بهجت لن يتراجع عن تعنته بعد أن استفحل الوقف وشهد المشكلة جميع الزملاء، لقد مزق بنفسه خطاب ترشيحه للبعثة وأعلنه بعدم قبول رسالته أمام الجميع، والدكتور بهجت عنيد متحجر العقل كما يعرف كل من تعاملوا معه، سوف يعتبر أي نقاش في هذا الموضوع ثانية إهانة له، بل إن حظه سيكون سعيداً جداً إذا

اكتفى الدكتور بمجرد عدم القبول و لم يطور رد فعله إلى ما هو أعنف، على أية حال لم يبق للدكتور كثير من الوقت في رئاسة القسم، لتمضي هذه المدة بأي صورة من الصور، سيبحث عن عمل آخر يعمل به مؤقتاً حتى يتم تغيير رئيس القسم والإتيان بآخر جديد يمكنه كسبه في صفه، الحل في هذا عند زميله الدكتور عادل، هو من المقربين للدكتور بهجت وإن لم يبلغ عنده أبداً المكانة التي بلغها هو قبل أن تتسبب أخته بكبريائها المستفز في هذه الأزمة، إذا وثق علاقته بعادل يمكن ساعتها ألا يضره الدكتور بهجت، سوف يراعي خاطر تابعه عادل، إذاً سيعمل هو الآن على التقرب من عادل، والشئ لزوم الشئ، هكذا وجد الحل للمشكلة ويمكنه أن يضرب عصفورين بحجر واحد، فعادل يبحث منذ فترة عن شريك يشاركه في عيادة ينوي افتتاحها في منطقة صفط اللبن، يخطط لها أن تتخصص في طب الأعشاب والحجامة وأشياء أخرى لم يعترف بها أحمد أبداً، إذا شارك في هذا المشروع وقدم له هذه الخدمة، سيحتفظ عادل بكثير من الود له وسيدفع عنه أذى الدكتور بهجت ما استطاع حتى يتدبر هو أمره ويأتي رئيس جديد لقسم التشريح، الآن اتضح الطريق، يجب أن توجد بينه وبين عادل علاقة صداقة قوية بأسرع ما يمكن قبل أن يقدم دكتور بهجت على أي عمل يضر بمستقبله.

يبدو أنك ما أن تفكر في شخص ما بشدة حتى تجده أمامك، وربما من فرط رغبتك في حدوث شئ ما يحدث هذا الشئ فعلاً، ها هو الدكتور عادل آت من الطرف الآخر للرواق مبتسماً، بلحيته الخفيفة النمو وشعره القصير المصفف إلى جانب رأسه الأيمن، يحييه بصوته الخشن ذي البحة المميزة فيه، يرد أحمد التحية بخير منها ويفيض في المجاملات ويستفسر مبتسماً عن مشروعه القديم وما إذا كان قد وجد شريكاً له أم لا، يجيب عادل بالنفي مؤكداً على أنه مشروع مربح رغم فقر المنطقة التي سيقام فيها، ولكن الزملاء لا يفهمون ذلك لأنهم لا يدركون من أين يمكن الحصول على الأموال هذه الأيام، يحمد الله على عدم وجود شريك حتى الآن ثم يخبره بأنه مستعد للعمل معه في مشروعه، يبتسم عادل ابتسامة كبيرة ويأخذه إلى نصف المكتب الخاص به ويحتضنه ثم يقرءان الفاتحة سوياً وبعدها يهنئان بعضهما بالربح الوفير القادم. خرج من مكتب عادل يمني نفسه بالأرباح التي ستعود عليه من مشاركته عادل، فسوف يحصل على مال يعينه على سرعة الوصول إلى الماجستير عندما يتم تغيير رئيس القسم كما سيصد شرور الدكتور بهجت عنه، كل ذلك بضربة واحدة موفقة جاءت في وقتها تماماً، فليفعل الدكتور بهجت وأخته ما يريدان، فليذهبا معاً إلى الشيطان، فلم يعد محتاجاً إليهما الآن كما كان من قبل.

وكعادته بدأ يرسم الطريق القادم وهو في لحظات نشوته بالمشروع الجديد، يفكر في من سيأتي رئيساً جديداً للقسم بعد شهور معدودات، هناك احتمال أن يكون هو الدكتور عاكف، وإن لم يكن رئيس قسم فسوف يكون له على الاقل حظوة كبيرة عند من سيكون هو الرئيس، ربما يجب عليه الآن أن يفعل مع عاكف ما فعل مع بهجت من قبل، ولكن بإمعان الفكر وصل إلى عقبة كبيرة تعترض ذلك الطريق، فالدكتور عاكف متدين جداً، يذهب إلى الحج كل عام أو عامين تقريباً، يرفض مصافحة زميلاته الطبيبات ويصلي كل الفروض ويصوم رمضان وأيام الاثنين والخميس من كل أسبوع، ولهذا سيتطلب الأمر جهداً كبيراً وكثيراً من التلون حتى يعجب الدكتور عاكف، والمشكلة الأكبر هي أنه معروف بميله الشديد للتيار الإسلامي، لا يقدم خدماته إلا لشباب التيار الإسلامي، لا يقبل الأبحاث ولا يساعد المعيدين إلا المنتمين منهم للتيار الإسلامي وهم قليلون، يعرفون بعضهم بعضاً ومرتبطون بصلات وثيقة معاً، ولهذا يصعب الانضمام إليهم الآن ومجاراقم بعد سنين طويلة من تجاهلهم، سيكون موقفه مثيراً للريبة إذا ما صحى الناس فجأة في يوم ليجدوه قد أطلق لحيته وحمل المسبحة في يده والمصحف في جيبه وبدأ يتكلم بقال الله وقال الرسول، والأخطر هو أن يصدق أيضاً كل فكرهم ويؤمن به بل ويدعو

له، ذلك الفكر عن كون الإسلام هو الحل ووجوب إقامة الدولة الإسلامية التي انقطع وجودها منذ أربعة عشر قرناً وأن يقرأ لسيد قطب وحسن البنا وأبي الأعلى المودودي ويتكلم بلسانهم بعد أن كان مطلقاً السياسة طلاقاً بائناً لا رجعة فيه.

وأعظم ما في الأمر جميعاً هو إمكانية أن يكتسب عداوة أمن الجامعة ويثير سخطهم إذا ما انخرط في هذا الاتجاه، ويالخيبة الأمل إذا حدث هذا واستبدل بعداوة الدكتور بهجت عداوة المقدم أسعد قائد الأمن الجامعي ذي الرجال المنتشرين في قلب الجامعة كلها كرمال الصحراء لا يمكن تمييزهم ممن سواهم، ساعتها يكون قد استجار من الرمضاء بالنار، ووضع مستقبله بين فكي الأسد، أسعد الذي إن شاء منع عمله أو عطله أو فصله أو حتى ألقى به في غياهب السجون بعد أن يدرج اسمه في قائمة سوداء، إن كتب فيها اسم تعس الحظ لم يمح ثانية أبداً، وإن دخل السجن ليلة واحدة فلن يخرج منه كما كان ولن يتمتع بنفس الأمان الذي كان فيه قبل أن يدخله على الإطلاق.

الحل إذاً ليس عند الدكتور عاكف، ومن حسن الحظ أن الاحتمال الأكبر لرئاسة القسم من نصيب الدكتورة نبيلة، قد يكون طالعه معها هي، فهي بشوشة مرحة وخاصة للزملاء الرجال، يهيأ له أنه يعرف الطريق الذي ينال به رضاها، فهي

متصابية ترى في نفسها أنوثة لم تفلح سنواتها الخمس والخمسين في خنقها، ذات مرة صبغت شعرها باللون الأصفر فكانت فضيحة تناثرت عليها عشرات النكات والتعليقات في وسط الطلبة ولم تخرج منه إليها أبداً، مع بعض التعليقات المشابهة بين ذوي النفوس المرحة من دكاترة القسم، قد يكون اهتمامها بنفسها بهذه الدرجة ومكياجها الكامل دائماً وتصفيف شعرها عند الكوافير كل يوم، وحركاتها التي تبدو عفوية بحيث تمد يدها لتزيح عن جبينها خصلة شعر متدلية تصففها بحيث تهبط على جبهتها كلما حركت رأسها يمنة أو يسرة، قد يكون كل هذا عائداً إلى طلاقها من زوجها الراحل الدكتور إبراهيم منذ حوالي عشرين عاماً، رغم أنها كانت في وقت دراستها أجمل فتيات الكلية حسب ما يقول بعض الأساتذة الذين يهوون الكلام البذئ ويفيضون في الحكي عن مغامراتها مع الشباب أيام صباها قبل أن تتزوج، ثم بعد أن طلقت حيث تناثرت بعض الكلمات عن حبها للتقرب من المعيدين الشبان وعلاقتها بأحدهم على وجه الخصوص، كان هذا منذ بضع سنين ثم سافر ذلك الشاب للعمل في إحدى دول الخليج وتأثر مزاجها بهذا كثيراً لمدة شهور بعد سفره ثم عادت إلى حالتها المعتادة.

أحمد يعلم كل هذا بحكم أنه يمشي في القسم دائماً مفتوح العينين متسع الأذنين لالتقاط أي خبر يفيده في التعامل مع أي شخص ممن قد تضطره الظروف للاحتياج إليهم أو التعاون معهم، وبعد قليل من التفكير وجد أن هذا هو أنسب الحلول،

إذا وثق علاقته بالدكتورة نبيلة لن يغضب لذلك أحد ولن يعاديه أحد، وإذا قدر أن تكون هي رئيسة القسم المقبلة فيمكنه عندئذ تخيل كم المنافع التي سيحصل منها عليها إذا تمكن من أن يغزو قلبها ذي الأبواب المفتوحة قبل مضي تلك الأشهر القليلة.

قرر البدء في هذا المشوار الطويل على الفور، وبنشوة النجاح الأول مع عادل ومشروعه عاد إلى الحجرة المجاورة للمشرحة التي كان فيها مع زميلته قبل أن يفسد خلوتهما ذلك الطالب الأحمق، التقط من الحجرة جاكيت البذلة الذي كان قد نسيه في هذا التوتر عندما خرج من الحجرة، ارتداه وأخرج ياقة القميص العريضة من تحته وحل الزرين الأولين من القميص ليبدو صدره القوي يطل منه شعر كثيف خشن، وذهب إلى دورة المياه بالمدرج الأول ليتأكد في المرآة من حسن مظهره وتناسق هندامه وابتسم لصورته المنعكسة أمامه ابتسامة خفيفة واثقة، خرج من دورة المياه متجهاً إلى اليسار إلى المدخل الآخر لقسم التشريح حيث يقع مكتب الدكتورة نبيلة قريباً، حتى يفتعل معها أي حوار يكون البداية لكلام يمتد حتى ينجح في هدفه، وهو يصعد الدرجة الأولى من السلم المكون من ثلاث درجات المؤدي لمدخل القسم، تطأ قدمه شيئاً صلباً، يواصل بعدها طريقه، ينظر ليرى ما وطأه ثم يمضي إلى الأمام، جزء مكسور من قحف جمجمة، يبدو من مظهره أنه من جمجمة بشرية على الأرجح، يبدو من حجمه أنها لطفل صغير على الأرجح.

الوقوف على الحافة

الشارع طويل، نهر من الأسفلت الأسود يقسم المنطقـــة إلى نصفين كخط الاستواء، بادئاً من محطة مترو الأنفاق ليمر بكل المنطقة إلى نهايتها عند كورنيش النيل.

أمشي حاثاً الخطى متعجلاً لألحق بموعدي، لست دائماً بهذه الدقة في المواعيد ولكن اليوم شئ آخر، الرصيف نظيف مـــن القمامة والقاذورات على عكس آخر مرة مشيت فيها في هـــذا الشارع.

كنت في آخر مرة أمر منه قبل الآن في زيارة لأحد أصدقائي يعيش في هذه المنطقـــة، مـــشيت يومهـــا أحـــاذر ســـائقي الميكروباصات المنطلقين في كلا الاتجاهين من الشارع الممتـــد، تنفجر في سياراتهم أغاني لأصوات منكرة، وأنظر أسفل قـــدمي على الأسفلت بجانب الرصيف المشغول بباعة الشاي والخبـــز، لأجنب حذائي الجلدي الثمين قمامة من كل الأنـــواع الـــتي

أمكنني تخيلها والتي لم يسعفني الخيال بتصور وجودها ووجـــود بشر تتخلف عنهم، ثم أرفع عيني مسرعاً لئلا أصـــدم طفـــلاً صغيراً أشعث الشعر أو إحدى ســـيدات المنطقـــة البـــدينات المتشحات بالسواد.

النهار منتصف والشمس طالعة في أفق صاف، رياح هادئة تداعب شعري المصفف بعناية وبكريم خاص، مصابيح أعمـــدة النور مضيئة رغم ذلك، آخر مرة مررت من هنا كانت لـــيلاً وكانت المصابيح مطفأة، يبدو أنهم أصلحوها الآن.

قدماي تؤلمانني قليلاً، اليوم وعلى عكس المرات الـــسابقة لم أقد سيارتي من المترل إلى هنا إطلاقاً، كنت سابقاً أوقفها في أي شارع متفرع من الشارع الرئيسي ولكن العثور على شـــارع مناسب لركن السيارة مشكلة في هذه المنطقة، فمعظـــم هـــذه الشوارع لا تستوعب السيارات أصلاً.

بينما أسرع الخطى وأمر من أمام مسجد كبير على الشارع الرئيسي أكاد اصطدم بسيدة مسنة، بيضاء الوجه ذات طرحـــة سوداء وبذلة زرقاء باهتة، ثقيلة الخطى تنظر أســـفل قـــدميها وكأنها تقف على حافة جبل شاهق الارتفاع، تتمتم بـــصوت خافت منهك: يا رب.

تفاديتها في اللحظة الأخيرة ولم تنتبه لي ، واصلت الـــسير

مسرعاً إلى أن وصلت إلى الشارع المتفرع من الطريق، واقفـاً على بدايته صديقي الذي أنا آتٍ إليه في هذه الزيارة.

يلمحني ويتهلل وجهه فيسلم علي ويحتـضنني ويبـادرني بالسؤال عن أحوالي بحرارة، فأجيب بهدوء عن كـل سـؤال بكلمة أو كلمتين.

أسأله أنا هل "الجماعة بتوعنا" عنده فيجيب بأن كلهم الآن في انتظاري في منزله على أحر من الجمر، كلـهم ممتنـون لي للغاية، محمد وإبراهيم ومنى وسارة، وهو شخصياً ممتن لي للغاية أيضاً.

طلعت معه إلى شقته في مبنى من ثلاثة طوابق إلى أن دخلنا فسلموا كلهم علي بحرارة أيضاً وترحيب وأعربوا عن شكرهم لي لتطوعي بمساعدتهم في مشكلتهم الصعبة.

أخرجت الكتب على الفور وقدم لي الـشاي، وتعلقـت العيون بي، أنا من سيخلصهم من معضلة مادة لا يعرفون عنها حرفاً سوف يدخلون امتحانها بعد بضعة أيام.

مادة حقوق الإنسان سخيفة حقاً، كتاب مؤلف من مئات الصفحات من وضع رجل معقد نفسياً، قرر علي وامتحنت فيه في كلية الحقوق، ولأننا معتادون فيها على المنـاهج الـضخمة والكتب التي يمكن الاستغناء عن نصف صـفحاتها ثم النجـاح

والانتقال إلى السنة التالية، استطعنا اجتياز امتحانها ببعض مذكرات وحيل في التركيز على أجزاء نعتبرها ذات أهمية، وبدأت إجازتي هانئة فاستهللتها بحرق بعض كتب الكلية ولكني استبقيت كتاب هذه المادة، لأن صديقي طلب مني شرح أجزاء منها له هو وزملائه في كلية التربية، فهم لا يعرفون عنها شيئاً وقد انشغلوا عن هذا الهراء بمواد أغرب من قبيل الفيزياء النووية وكيمياء البوليمرات وأشياء أخرى تحتاج أسماؤها لشرح مطول. تعلقت آماله هو ومحمد وإبراهيم وسارة ومنى، ومن بعدهم كل أصدقائهم في قسم الطبيعة والكيمياء الذين ينتظرون مجهودهم معهم كما ينتظرون هم مجهودي معهم، تعلقت جميعاً على شخصي، وقد سررت بهذا كثيراً.

وها أنا ذا في بيت صديقي الذي أنفت من زيارته غير مرة ولكن الظروف الآن تغيرت، أنتقي مقعدي بجوار سارة مباشرةً، بعد دقائق لا أستطيع أن أتذكر الضحكة الدالة على فراسة خارقة تنفذ إلى نيتي وتعرف ما يدور في ضميري وهي تحتضر عمداً على وجه صديقي عندما فعلت هذا، أكانت واقعا أم من وحي خيالي الذي انطلق في تلك اللحظات في أحلام متهورة هي بطلتها، أوليها كل اهتمامي في الشرح وأستفيض فيه محاولاً تسهيله إلى أقصى درجة بأسلوب رجل حائز على جائزة نوبل يشرح نظرياته لابنه في المرحلة الابتدائية، يستوعب الجميع كل شئ إلا هي، تسألني عن كلمة لم تسمعها جيداً،

فأعيد عشرات الجمل بأبسط ما يمكنني بدون أي غضاضة، تشكرني ببساطة آسرة فيخفق قلبي حتى أظن أن الجالسين ومعهم صديقي صاحب المترل وجيرانه جميعاً يستمعون إلى دقاته ويبتسمون سخرية وتهكماً.

منذ أن طلب مني صديقي هذه المساعدة وعلمت أنها ستكون موجودة في نفس المكان وافقت على الفور، سييسر لي صديقي فرصة لأراها وأكون بجوارها قد تتكرر كثيراً عندما تعترف لي بفضل هذه المساعدة، منذ أن عرفت صديقي منذ عامين في صدفة غريبة في الجامعة جمعت بيننا على اختلافنا واختلاف طبائعنا لم أحبه بقدر ما أحببته بعد هذا الموقف، ولم يفدني بشيء قدر ما أفادني بهذه اللحظات التي كنت فيها بجوارها.

أقارب على الانتهاء من شرح المطلوب مني وتلخيصه ولا أريد الانتهاء منه، أنا مايسترو تأبى عصا قيادة الأوركسترا أن تفارق يده وهو في أشد لحظات إبداعه، أتمنى لو كان ما أشرحه أكثر قليلاً ليكون لدي لحظات أخرى لأستزيد من لذة النظر إلى وجهها الجميل.

ينفض السامر وفي قلبها عرفان عميق تجاهي، نقوم جميعاً وتبتسم لي، تماماً كما رأيتها أول مرة، مع نفس الأشخاص الذين نجلس معهم الآن، بنفس المعطف الأزرق وعليه

الإيشارب الأسود الذي ترتديه الآن، ونفس الابتسامة التي تعلو وجهها الآن، وشاح أحمر دافئ يكشف عن لآلئ هي أثمن ما رأيت متراصة في صفين أعلى وأسفل، في وجه صنع من المرمر الأبيض.

ننهض جميعاً وأتحرك أنا محاطاً بكلمات شكر من كل الأنواع ودعوات بحسن الجزاء لم أسمع معظمها، أثناء قيامنا ألامس جسدها الذي حفظت تفاصيله في ذاكرتي منذ أن وقعت عيناي عليها في المعطف الأزرق والإيشارب الأسود ونفذتا إلى ما تحتهما، ومرة أخرى لا أستطيع أن أتذكر هل فعلت ذلك قاصداً أم لا، ينصرف كل منهم إلى منزله فكلهم يسكنون في ذات المنطقة، تمشي سارة بعيداً بخطوات رشيقة هادئة بطيئة بعض الشئ وهي تنظر أسفل قدميها كعادتها ولا تفارق ابتسامتها عيني، وبالكاد أرى وجه صديقي الذي يوصلني إلى الشارع الرئيسي ثم يشد على يدي شاكراً إياي للمرة الألف.

أمشي في الشارع مسحوراً بدون أن أن أعقب أو أنطق بكلمة رداً عليه، أواصل الطريق الطويل وأتعثر وأنا عائد بعد المسجد الكبير ببضع أمتار وألمح أمامي سيدة بيضاء الوجه ترتدي زياً أزرقاً كالحاً لعمال النظافة، ثقيلة الخطى حتى لتحسبها ترجع إلى الوراء، تنظر إلى أسفل وكأنها تقف على

حافة جبل شاهق الارتفاع، تتمتم بصوت خافت منهك وتستغيث:

يا رب..

يا رب..

أكمل طريقي عائداً من حيث جئت، في الشارع الطويل المظلم ذي أعمدة الإنارة مطفأة المصابيح، فقد أقبل الظلام منذ فترة.



رقصة النكبة



– اعقل يا واد.. ما يصحش كـــلام العيـــال ده.. عيـــب تتخاصموا كده زي الأطفال" قلتها بحسم وحماس من يضطلع بمهمة جليلة كالإصلاح بين أشـــقاء رمـــاهم الـــزمن بـــسهم الكراهية.

– والله ما ينفع.. هذا شخص فظيع وهزاره كيف ما تقولوا هون هزار بوابين.. تحملته كتير وما في فايدة.. والله كانوا على صواب لما فصلوه من كليته في السعودية" قالها محمد.

– أيوه. وجه هنا عشان يخنقنا في حياتنا.. وانت كمان ما انت نازل علينا ضيف وادينا شايلينك وشايلينه ومـــا قلنـــاش حاجة.

– حقيقي أنا ضيف بس بدفع لجـــامعتكن مـــصاري مـــا بتدفعوها.. ٣٠٠٠٠ جنيه لأن ما معي الجنسية.

قلت أنا:

- أحسن لك.. يعني احنا معنا الجنسية عملنا بيها ايه.. ما تقول حاجة يا أحمد.. الواد ده هيذلنا بفلوسه ولا ايه؟.

قال أحمد" على أي حال إحنا اخوات وما يصحش تتخاصموا.

قال محمد:

- كيف اخوات..أنا لا أخوه ولا شي.

تدخلت أنا:

- أهو يعني أخوات في الإسلام..وإن كان حد منكم كفر وما قال ليش برضة احنا كلنا عرب.. وإن ما كانش ادينا اخوات في الإنسانية .

محمد:

- يا خالد ده واد خنيق.

أحمد:

- فيها ايه يعني أنه واخد دور الواعظ.. واحد قال لك كلمة ضايقتك.. عادي.. ما انت بهزار أمك ده مرة كسرت لي الساعة اللي أبويا جابها لي من الكويت.. وانتم عارفين إنها عزيزة عليا.. اهي المصلحة الوحيدة اللي طلعت بيها من الراجل ده.

ضحكنا وبدأت النفوس تصفو.

أنا:

- كمان احنا ناويين على الخروجة دي من شهرين.. هنيجي نفركش دلوقت.. كلنا رايحين نفس المكان يبقى نروح كلنا في عربيتي علشان نفضل مع بعض.. كلام عيال هو ولا إيه؟.

استطردت وأعصابي تفلت مني:

- مش ناقصين بقى طفولتكم دي..

كنت قد بدأت أغضب فعلاً وأتعصب رغم إدراكي لأهمية دوري في الصلح بينهما:

- أنا مش أختكم الكبيرة ياد.. ما خلفتش حد فيكم ونسيته.. مش كل شوية أسمع حد منكم يقوللي: "الواد ده قاللي كلمة مش عاجباني" "الواد ده هزر معايا هزار مش حلو" "الواد عمل لي إيه وسوا لي ايه" ما تكبروا شوية بقى يا جدعان.. كل كام يوم هاجي أقول معلهش يا حبيبي استحمل أخوك ..احنا أصحاب عشان نصلحكم على بعض؟ وشكلكم هتتصالحوا فعلاً وأنا اللي هأقع من طولي في الآخر.. وصيتك العيال يا أحمد".

ارتسمت ابتسامة على شفتي أحمد فقال محمد:

- طب وليش زعلان؟ خلاص..ما حصل شي..بس خبروه أني المرة الجاية ما هاسكت له.

قال أحمد:

- ما بلاش بقى الكلام الكبير ده..مش هنسكت وهنرد وهنستنكر وهنشجب وهأولع فيه.. ما انت طول عمرك بتاخد على قفاك يا عم محمد وما تخليناش نتكلم بقى.

محمد:

- شو عمبتقول؟.

استدركت أنا مسرعاً:

- ما قالش حاجة يا عم..الواد بيهزر.. انت دماغك مقفلة كده ليه؟ انت صعيدي يا؟ إلا صحيح عندكم صعيد في سوريا ولا لأ؟.

قال أحمد ضاحكاً:

- اهو انتو كده عاملين زي الصعايدة العشرة اللي بيلعبوا صلح بالنبوت..مات تمانية وبقى اتنين قالوا كفاية لحسن تقلب بغم" ضحكنا.

رددت أنا:

- صعايدة تانيين بيلعبوا على الطريق الزراعي.. اللي تخبطه

عربية مرتين يطلع بره.

ظللنا نضحك ونتبادل النكات حتى قرر محمد:

- ok.. نتصل فيه ونقول له هنعدي عليه وناخده معانا.

أحمد:

- هو ده الكلام..أنا هاتصل بيه.

أمسك بالتليفون وطلب الرقم:

- آلو.. أيوه ياعصام.. ايه أخبـارك؟ الحمـد لله.. احنـا هنعدي عليك بالعربية وتنزل لنا عشان نروح الحفلة .. حريم؟ لا ما تقلقش.. هاهاها.. هنلاقي هناك.. المزز على قفـا مـين يشيل بينادوا على اللي يظبطهم.. وبعدين ايه ياد كلمة حـريم دي؟ عايز تتعرف على مزز بلهجة أمـك دي؟ يـاد خليـك متحضر.. أربع سنين في مصر ومش عارف تتكلم مـصري.. أيوه أمال ايه.. مصر أم الدنيا طبعاً" ثم أنهـى المكالمـة وأردف ضاحكاً:"نفسي أعرف مين أبوها".

نزلنا من الشقة التي استأجرها محمـد في المدينـة وركبنـا سيارتي التي أوقفتها تحت المبنى.

قال أحمد:

- يللا يا رجالة..الوقت بيجري واحنا لسه هنعدي علـى

عصام.

جلست وأمسكت بعجلة القيادة وقلت:

- ما تقلقش ..أنا هتصرف وبعدين هنخرم مـــن شـــارع جامعة الدول العربية ونوصل لعصام على طول.

وانطلقت بسيارتي وسط الشوارع المزدحمة وأنا أصفر بأنغام لأغنية قديمة من سنين الستينات.

هتف بي محمد:

- ده انت قديم قوي.. لسه في حد بيسمع ها الأشيا بعـــد العام الفين؟".

قلت:

- كله من أبويا يا عم..عايش في زمن غير الزمن.. أقعد في البيت في الثلاث أربع ساعات اللي بيرجع فيهم للبيت ألاقيـــه مشغل الجزيرة وقاعد قدامها مذهل.. اشي اللواء الفلاني عضو مجلس قيادة الثورة والمشير العلاني قائد ســـلاح العوامـــات في البحرية المصرية في حرب ٦ أكتوبر وحرب العاشر من رمضان والشيخ زايد وحرب مدينة العبور.

صمت قليلاً ثم ضحكت وقلت:

- لأ والبتاع التاني ده اللي اسمه هيكل.. بقى مقرر علينا في

البيت أبويا يقعد قدامه ويعلي الصوت على آخره.. بقيت أنام على هيكل وأقوم على هيكل لحد أما دماغي هيكلت.

أضاف أحمد ساخراً:

- وكمان صور العالم الأنتيكا اللي معلقهم على الحـيط.. وشوش كالحة لابسة بدل جيش.. ويقوللي كمان أن واحـد فيهم كان رئيس جمهورية.. كان ريس من ورانا ده ولا ايه؟"

ضحك محمد وقال:

تلاقيها صورة الريس متقال وهو في التجنيد".

واستغرقنا في الضحك لحظات ثم وصلنا لـشارع جامعـة الدول العربية حتى ألقى أحمد نكتة:

- كتكوت لابس تي شيرت عليه صورة بيضة أومليـت.. تبقى إيه؟.

- إيه؟

- إيه؟

- صورة أخوه الشهيد.. هاها. حلوة.. مش حلوة بذمتك؟

قلت:

- وصلنا شارع جامعة الدول العربية.. عصام بيته قريـب

من هنا مش كده؟"

أومأ أحمد برأسه وقال:

- الشارع ده وسخ وساخة.. لو كنا بالليل شوية كنت زمانك تحلف بالليلة اللي نقضيها يا عم محمد.

سأله محمد:

- شو فيه؟ فيه مثلاً...؟.

قال أحمد:

- فيه كل اللي تحبه واللي انت فكرت فيه دلوقت..فيه كل خير إن شاء الله.

قلت :

- هي دي العمارة ؟.

أحمد:

- هي.. أهو نازل دلوقت.

وجدنا أمامنا صديقنا عصام بجسده الضخم وشعره الطويل اللامع بفعل الكريم الموضوع عليه منذ لحظات وشعر لحيته الذي يتركه دائماً نامياً قليلاً منذ أن سمع من صديق لنا أن الفتيات عندنا يحببن هذا الشكل.

هتف أحمد:

- عظام .. حبيب قلبي.. اتفضل يا عم.

قال محمد:

-كل ده وعظام..حرام عليك!!

بدا عصام متضايقاً بعض الشئ وقال:

- مو أبغي ثقل دمك يا محمد.

أضفت بحسم حتى أمنع أي خلاف جديد:

- مش وقت كلام يا رجالة.. احنا متـأخرين.. علـى الله نوصل ونلحق الحفلة.

انطلقنا بأقصى سرعة حتى وصلنا إلى مكان الحفلة ودخلنـا واتخذنا أماكننا وسط الزحام الرهيب من آلاف البشر. كان في هذه الحفلة تقام الحلقة النهائية لمسابقة يشترك فيها متـسابقون من جميع أنحاء الوطن العربي هدفها أن نخرج منها بنجم نبـاهي به العالم في الفن.. ولحسن الحظ يستضيف هـذا البرنـامج في حلقته الأخيرة -حلقة تتويج الملك على شباب العرب- نجمـة لبنانية شهيرة جميلة أعربت عن سعادتها البالغة بأن هذا اليـوم يوافق -ويا للصدف السعيدة- يوم عيد ميلادها.

استمرت الحفلة حتى الصباح- لم أعرف أنه الصباح حـتى

نظرت في الساعة لأرى العقارب تشير إلى الخامسة فجراً يوم ١٤ مايو.

لم نشعر بالوقت مطلقاً.. قد فتنتنا الموسيقى والأغنيات التي غنتها نجمة الحفل وجعلتنا نحلق بها في السماء لساعات وساعات.. ياالجمال لبنان وما تهدينا به لبنان من نجوم!

بعد بعض الأحاديث العابرة مع فتيات لا أعرف لماذا أعجبن عصام ومحمد وجعلنهم شبه غائبين عن الوعي لمدة كبيرة رغم أنهن لم يكن جميلات إلى هذا الحد الذي يسحر عقلي شابين ليسا بالساذجين مثل عصام ومحمد،

انصرفنا بعد ذلك وكان أجمل ما في الأمر أن طاقتنا التي خرجت مع الموسيقى ورقصة الدبكة التي رقصها الشباب في الحفل قد أخرجت معها شحنة العداوة بين عصام ومحمد ولأول مرة نراهما منسجمين هكذا.. يضحكان معاً ويغنيان معاً ويمزحان معاً وحتى يعجبان بنفس الفتيات ويحاولان التحدث إليهن معاً.. حقاً إن الفن يسمو بالروح.

ودعنا بعضنا وانصرف كل منا إلى بيته..كانت الساعة السابعة صباحاً تقريباً عندما وصلت إلى منزلي ودخلت لأنام.

في حوالي الساعة العاشرة صباحاً أيقظني رنين الهاتف المحمول من نوم عميق.

- آلو؟

- أيوه يا خالد..محتاجينك لو سمحت.

- أنت مين أصلاً؟

- أنا محمد مجاهد يا خالد.

- معلهش أصلي ما عرفتش صوتك.. خير عايز ايــه؟... ماشي... ماشي ..ok.. ما تقلقش.. سلام.

ياللسخافة! لا ينقصني بعد ليلة جميلة كليلة الأمس ســوى هراء محمد مجاهد وتمثيلياته الثورجية! خرج من الجامعة رأســاً ومعه بعض المعاتيه على شاكلته ليتظــاهروا أمــام الــسفارة الإسرائيلية وقبض عليهم.. والآن يريدني أن أتصل بأبي في عمله عله يجد لهم مخرجاً من ورطتهم حيث أنه عميد في الشرطة وله اتصالات واسعة بأناس مهمين وحقاً يمكنــه إخــراجهم مــن ورطتهم تلك.

ولكن المشكلة هي أنني إذا اتصلت به فلن أسلم من لسانه.. طالما أنه استيقظ صباحاً ونزل إلى عمله ولم أكن موجــوداً في البيت فلابد أنه استشاط غضباً وسيحتفظ بكل الكلمات الــتي تستفزني على لسانه ويكومها ساعة بعد ساعة حتى يفرغها في وجهي عندما يرجع إلى البيت.. ولهذا يستحــسن ألا أكــون موجوداً في البيت في هذه الساعة أيضاً.. ولكن ماذا أملــك أن

أفعل؟ لن أترك أصدقائي في قسم الشرطة وأنا أستطيع إخراجهم منه وإنقاذهم من زفة المخبرين رغم أن غباءهم وتهورهم هما اللذان أدخلاهم إياه، يبدو أنه قدري أن أساعد الآخرين.

أنا الآن مضطر إلى تحمل الكلمات السخيفة التي سيمطرني بها أبي عندما أتصل به وأنا أيضاً مضطر إلى تطييب خاطره بشأن الليلة الماضية ببعض الكلمات اللينة والأكاذيب البيضاء.. سأتصل به حتى لا تسوء الأمور فوق رؤوس أولئك الصغار الذين يلعبون دور الثوار أكثر من ذلك.

وبرغم كل ما سمعته من أبي في الاتصال وكل ما مر به أصدقائي في هذا الصباح في القسم من البهدلة وإهدار الكرامة وكل وجع الرأس ذلك منذ أن عرفت أولئك المهووسين -محمد مجاهد ومعارفه- بأمور لا تعنيهم.. فقد كان ذلك اليوم -١٤ مايو- يوماً جميلاً من أجمل أيامي في هذه السنة.

حامل المصحف

أغلب دفعتنا يعرف صالح السلفي عظيم المعرفة، فقد كـان يعتبر في بعض الأحيان من معالم الكلية هو وبعض أشياء أخرى مثل المشرحة ومبنى المدرجات الضخم الذي لم تنظف أرضياته منذ أن اكتمل بناؤه في سبعينيات القرن الماضـي والكافيتريـا الصغيرة التي تظللها الأشجار وتبول فيهـا العـصافير علـى الجالسين والتي اتخذها التيار الديني فيما بعد مقراً لنشاطه.

ومنذ أن دخل صالح الكلية وجد نفسه أكثـر في الاتجـاه السلفي، ارتاح للـسلفيين وأحبـهم بأفكـارهم ومبـادئهم ومشايخهم وأوامرهم وكل ما يتعلق بهم، ووثق فيه الـسلفيون الأكبر سناً ورأوه إضافة كبيرة للحركة حيث كان عظيم الهمة قوي الحماس، لا ييأس من أحد، يـصادق الكـثيرين ويحبـه الكثيرون وتقريباً لا يكرهه أحد.

ولم نعرف هل كان اقترابه منـا ومـن الكـثيرين غيرنـا

ومصادقته لأغلب الناس تعود إلى طبع أصيل في شخصيته أم كان هذا بناء على أوامر عليا من السلفيين الأعلى في الكلية الذين قد يكونون على صلة بجماعة خارجية، وأحياناً ما كانت تجنح بنا الظنون لنرى صالحاً عصفورة (عميل للأمن الجامعي) ولكن هذه الفكرة دحضت نفسها بمرور الوقت.

اشتهر صالح في الكلية شهرة كبيرة وذاع صيته حتى عرفه أغلب الطلاب، المتدينين منهم والمنحرفين، المجتهدين والفاشلين وتباينت الآراء فيه حتى أصبح بطل الكلية الأول.

وربما نجد بعد مرور بضع سنوات أن صالحاً قد افتتح له متحفاً في دور آخر يُنشأ في مبنى قسم التشريح، أو ربما حتى يحولوا متحف التشريح إلى متحف صالح السلفي، ويستبدلون أشرطة صالح وكتبه الصغيرة التي تباع على مخارج محطات مترو الأنفاق بنصف جنيه للكتاب والتي كان يوزعها علينا مجاناً في بعض الأحيان ولافتاته التي لم يسلم منها جدار في الكلية والتي غامر بسببها كثيراً وتحمل الكثير من التحقيقات والإنذارات والفصل لمدد لم تزد على الأسبوع في كل مرة من تلك المرات، يستبدلون كل هذا بعينات متحف التشريح المحفوظة في الفورمالين.

ويندر أن تجد صديقاً لنا (صديقاً لأن تعامله كان مع الذكور فقط بالطبع، أما الإناث فتتولاهن الطالبات المنتميات

إلى نفس تيار صالح الديني واللاتي يماثلنه أو ربما يفُقنه حماسة وتعصباً) لم يتعرض لموقف ما مع صالح، من تأنيب من صالح له على حلق لحيته، أو على محادثة فتاة، أو دروس في المسجد يدعونا إليها تدور دائماً حول مواضيع غاية في التطرف، أو وصلة وعظ أصاب بها أحدنا عندما وجده يستمع إلى جهاز إم بي ثري ليكتشف أنه –وياللهول- يستمع إلى أغنية وليس إلى محاضرة مسجلة لأحد الأساتذة.

شيئاً فشيئاً أخذنا في التعود على صالح وأحببناه رغم اندفاعه ومواعظه التي اخترقت آذاننا كالرصاص عشرات المرات كنا فيها أحياناً صائبين وغالباً مخطئين، ولكننا كنا نتضايق كثيراً لأسلوبه في التعامل معنا، ولكن بمرور الوقت وطننا أنفسنا على أن نستمع إليه بمنتهى الإنصات حتى نحافظ على صداقتنا معه ثم نطرح من رؤوسنا كل ما قال فور أن يغادرنا.

وهكذا حدث لصالح العديد من المواقف المحرجة تسببت فيها حماسته البالغة، كنا نغفرها له لأنه كان طيب القلب حقاً. ولكن أحد أكثر المواقف إحراجاً، الذي لا أنساه حتى الآن، حدث مع أحد أصدقائنا ولم نفلح بعد ذلك قط في إصلاح الأمر وإعادة المياه إلى مجاريها.

كان صديقنا ذاك واقفاً مسنداً ظهره إلى سور حوض زرع صغير أمام مبنى المدرجات وقد أمسك بمصحف يقلب في

صفحاته بلا مبالاة واضحة لم يلحظها صالح الذي كان قادماً من بعيد، ربما كان قد انتهى من دعوة بعض زملائنا المسلمين إلى الإسلام، وكان يمشي وهو يدندن بكلمات متنوعة كانت تختلف عادةً حسب الأحداث وحسب حالته المزاجية، فإذا كان ذاهباً إلى المسجد أو على وشك الدخول في جدال مع أحد ينشد بصوت خفيض: "في سبيل الله نمضي نبتغي رفع اللواء....فليعد للدين مجده وليعد للدين عزه ولترق منا الدماء"، وإذا خرج مما هو فيه مسروراً يقول: "أن تدخلني ربي الجنة هذا أقصى ما أتمنى" وفي أشد حالاته حماسة واشتعالاً بأفكار الجهاد وفي طريقه إلى تعليق لوحات أو تنظيم مظاهرة أو حضور تحقيق تعقده له إدارة الكلية يرتفع صوته عالياً حتى يسمعه من يتصادف مروره بجانبه: "اضرب ضربتك المنتظرة...واقتل ما شئت من الكفرة واجعل من أوطاني قبراً....لجيوش الكفر المندحرة". وهذا لأن شيوخه أجازوا الأناشيد الإسلامية إذا كانت تثير الشوق إلى الجهاد وغير مصحوبة بأي نوع من آلات العزف.

كان يخطو بحماسة وهو يغني فينكشف كاحله والجزء الأسفل من ساقه اللذان يحرص على ألا يغطيهما البنطلون حتى رأى وهو قادم صديقنا ذاك واقفاً وفي يده المصحف.

كانت هذه مفاجأة له فهو لم يره من قبل على هذا التدين، أو بمعنى أصح هو لم يكن يعرفه أصلاً، كان فقط يراه معنا أحياناً فيسلم عليه ويرد هو السلام ورحمة الله وبركاته.

بدا على صديقنا أنه عرف صالح وابتسم له وهـــو قـــادم، فتشجع صالح وبدأ الحوار بابتسامة كانت من الأشياء القليلـــة التي تجعلنا نتقبله، حيث كان جمال هذه الابتسامة التي تظهـــر أسنانه البيضاء المنظفة بالسواك يجعلنا نغض طرفنا عـــن لحيتـــه الكثيفة غير المتصلة ببعضها التي لم يمسسها موســـي ولا حـــتى مقص منذ عدة سنوات، منذ أن "هداه الله".

- السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

فرد صديقنا:

- وعليكم السلام...إزيك يا صالح؟.

- ماشاء الله..ما شاء الله..جايب معاك مصحف..أنا طول عمري أقول إنك إنسان محترم وصاحب أخلاق.

- آه المصحف ده...؟؟ وبدا عليه التردد.

- ولكن صالحاً لم يمنحه الفرصة فالتقط منه الخيط مبادراً: "هاتتكسف من ايه؟ وهي دي حاجة تكسف؟ والله أنا فرحت لك قوي..وربنا فرحان بيك أكثر..قال رسول الله صـــلى الله عليه وسلم:" الله أفرح بتوبة عبده من أحدكم بضالته في فلاة من الأرض عليها طعامه وشراب"...بس المهم تداوم على هذا الصلاح، إن أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل.

أنا كمان دائماً أقول إن الصحبة الصالحة مهمة جداً علشان تمشي في طريق الحق..انت من ساعة ما عرفت حسن وشـــلته وانت ما شاء الله في تحسن في أخلاقك كل يوم".

فقال الصديق وهو يتأهب لغلق الموضوع من أساسه:

– فعلاً حسن وكل معارفه ناس محترمين جـــداً وطيـــبين ومتدينين".

زاد هذا من حماس صالح فبدأ صوته يعلو وهو يقول:

– أيوه..أهم حاجة الصحبة، والمرء على دين خليله، سيبك بقى من العيال النصارى الحيوانات اللي انت كنـــت تعـــرفهم دول، دا احنا يا راجل كنا أحياناً ما نشوفكش غير معاهم".

فانفعل ورد عليه:

– لا ما تشتمهمش أصل....

قاطعه صالح للمرة الثانية وقال: "معلهش يا ســيدي أنــا عارف إنهم أصحابك وغاليين عليك بس أنا لا أخــاف في الله لومة لائم...دي الحقيقة ولازم يكون الإسلام أغلى عندك من أصحابك وإخواتك وحتى أبوك وأمك وأنت نفسك...قـــال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من أمه وأبيه " وفي رواية " ونفسه التي بين جنبيه ".

المهم بقى أنا عايزك تداوم على كده على طول وتتحرك من حسن إلى أحسن واحنا معاك مش هنسيبك" ثم ابتسم وقال:

- وبالمناسبة دي أنا أدعوك لدرس في المسجد بعد صلاة العصر بإذن الله...وإذا احتجت أي حاجة أو أي معلومات في الدين أو احتجت اللي يأخذ بيدك في الطريق السليم تعال لأخوك صالح.

ثم مد يده في جيبه وأخرج منه كتاباً صغيراً ذا غلاف ملون مكتوب عليه "الهداية لمن تاب عن الغواية" ووضعه في يد صديقنا وقال: "ودي أول هدية من أخوك في الإسلام صالح وحاول تنضم لينا في الدعوة...وأذكرك بالحديث اللي انت أكيد عارفه: " والله لأن يهدي الله بهداك رجلا واحدا خير لك من حمر النعم " صدقت يا حبيبي يا رسول الله.. حط الكتاب في جيبك عيب كده، طيب والله ما هو راجع تاني.

وفي هذه اللحظة خرج من دورة المياه المواجهة لحوض الزرع الذي كانا يقفان أمامه صديقنا الثالث حسن الذي كانا يتحدثان عنه قبل ذلك بلحظات.

ابتسم حسن لمرآهما وتوجه إلى صالح وحياه ثم نظر إلى صديقنا الآخر وقال: "متشكر قوي يا مايكل..ربنا يخليك" وأخذ منه المصحف ليضعه في جيبه.

فقال مايكل:

- فرصة سعيدة يا - بسخرية- أخ صالح..عن إذنك..السلام عليكم.

وقف صالح مذهولاً حتى إنه لم يرد السلام عندما انصرف حسن ومايكل، وإذا كان لنا الحق في أن نشق عن قلبه لأكدنا أنه لعنهما في سره ألف مرة وهما يمشيان بعيداً وعلى وجهي الاثنين تعبير غريب لا تعرف ما إذا كان ابتسامة أم سخرية أم سخط ودّا له أن يبدو في صورة مهذبة.

ومن ساعتها لم يتغير صالح كثيراً وظل على حماسته المعهودة، ولكننا لسبب لا نعرفه -أو ربما كنا نعرفه وآثرنا أن نتعامى عنه - لم نر مايكل مع حسن وأصدقائه الآخرين ثانيةً أبداً.

جمعة وفرقة



تسللت أشعة الشمس عبر النافذة المغلقة في الدور السابع من ذلك العقار المكون من عشرة طوابق، وأخذت شيئاً فشيئاً تزيد من درجة حرارة الفراش الذي يرقد عليه ذلك الشاب حتى تحول برغم مكيف الهواء الذي يعمل على درجة بسيطة إلى قطعة من الجمر أدت به إلى أن يستيقظ من نومه مغتاظاً من ذلك الجو الحار.

حاول أن يخلد إلى النوم ثانية ولكن الحرارة التي ارتفعت جداً في ذلك اليوم والضوء الذي دخل إلى عينيه غصباً عبر جفنيه أرغماه على الاستيقاظ ثانية بمزيد من التأفف والضيق.

نظر إلى الساعة المعلقة على الحائط فوجد عقاربها تشير إلى العاشرة والنصف صباحاً والنتيجة تحتها تحمل أسفل تلك الصورة الكبيرة للحرم المكي ورقة مكتوب عليها أن اليوم هو الجمعة وتحمل جملة بدا له أنها تتكرر للمرة الألف على الرغم

من أن أوراق النتيجة ثلاثمائة وخمسة وستون ورقة فقط بعـــدد أيام السنة.

"تبسمك في وجه أخيك صدقة"

قام إلى دورة المياه بخطى متثاقلة حتى غسل وجهه بالماء وبدأ يفيق تدريجياً ويتبين ماذا سيفعل..الساعة ما زالـــت العاشـــرة والنصف وقد قرر أن يذهب مع أصدقائه إلى السينما لمـــشاهدة فيلم جديد لأحد مطربي الملاهي الليلية الذين انتقلـــوا بـــسرعة غريبة إلى السينمات بعد أن أيقن المنتجون أنهم سيجلبون لهـــم أعلى الإيرادات حيث أن أولئك المنتجين كانوا يظنون الجمهور كالحيوانات بلا عقل نتيجة لخبرتهم الطويلة مع الحيوانات الـــتي عملوا في تجارتها وذبحها قبل أن ينتبهوا إلى أن السينما أصبحت تدر أرباحاً أكبر وتكسب العاملين بها شهرة لا تحققها مهنـــة الجزارة فانتقلوا إليها أيضاً مثلما انتقل أهل الكباريهات.

ولكن موعد الخروج مع الأصدقاء لن يحين قبـــل الـــسابعة مساءً..أمامه إذاً الكثير من الوقت الفارغ.

استدار إلى جهاز الكمبيوتر وقبل أن يشغله تنبه إلى أنه قـــد ترك القرص المدمج الذي أحضره له أحـــد أصـــدقائه علـــى المنضدة.. أخذه وخبأه في أحد أدراج المكتب بين صـــفحات كتاب ضخم يحمل عنوان "مبادئ القـــانون الـــدولي للفرقـــة

الأولى" وحمد الله أن أحداً لم يلمحه بالصدفة منذ أن نسيه على المنضدة الليلة الماضي بعدما حمل ما فيه من أفلام على الجهاز وشاهدها فنام بعدها ذلك النوم العميق الذي لم يوقظه منه إلا حرارة الجو.

ترك الكمبيوتر ونسي ما كان يريد أن يفعل في زحام الأفكار، ما كان سيحدث لو اكتشف القرص وكيف سيتصرف معه والده الذي يفخر على الدوام بين أصدقائه أن له القدرة على خداعه وإلباسه العمة في أي وقت شاء حتى صار يكن له من الثقة ما يجعله يتصور جناحين ملائكيين على ظهر ابنه.

قام إلى التليفزيون وشغله حتى وصل إلى المحطة التي كان يجب أن يكون عليها قناة الأغاني الشهيرة التي يتابعها كثيراً.. لم يجدها ووجد محطة أخرى مملة جداً، وفي صمت لعن صاحب الوصلة الممتدة إليهم والتي تزودهم بهذه القنوات.. أخذ يستعرض القنوات حتى توقف أخيراً عند تلك القناة الدينية المعروفة، لم يكن يحبها ولا يتابعها ولكن لم يوجد شئ آخر يذهب به الوقت الممتد أمامه كصحراء من الملل لا زرع فيها ولا ماء.

ظهرت على الشاشة صورة ذلك الواعظ الشاب الذي كان -على عكس الكثيرين من زملائه ذوي اللحى المشعثة- حليق اللحية ذا شارب خفيف ورأس به شئ من الصلع يعطيانه قدراً

لا بأس به من الوقار لا ينال من شبابه الظاهر ولغته البسيطة التي جذبت له الآلاف من الناس حتى صار أحد أكثر الشخصيات شعبية بين الشباب وحظى باحترام يندر أن يحظى به رجل دين لدى الشباب.

وكعادته عندما ينفعل زادت حدة صوته حتى صار مضحكاً على نحو يتنافى مع مظهره الأنيق وارتفع صوته الواعظ الرفيع قائلاً:

"يا جماعة احنا ليه مش حاسين الناس دي (الصحابة) تعبت قد ايه عشاننا..عشان نطلع مسلمين زي ما احنا..قارنوا بيننا وبينهم..ياه..ناس كانت هتموت عشان الإسلام..."

سخر منه قليلاً ولكنه واصل المشاهدة وقد بدأ ينصت بعض الشئ لهذا الكلام الجديد عليه.

"تخيل الفرق بين الصحابة وبين شاب ما بيصليش..ياه.. وبعد ما كان الكفار هيقتلوا أبا ذر الغفاري.."

استغرق قليلاً يفكر في كلمات ذلك الواعظ.. بالفعل هو يجب أن يكون أفضل مما هو عليه.. إنه يقول دائماً أن "قلبه أبيض" وأنه طيب ونقي السريرة لا يكن حقداً على أحد ولا ضغينة لأحد.. حسناً.. ماذا سيخسر إذا فعل مثل ما يفعل الناس وبدأ في الصلاة وامتنع عن التدخين.. أليس هذا هو ما

يطلبونه الآن؟! أليس هذا هو ما يضمن لـــه الـــدنيا والآخـــرة ويطمئن به أنه مسلم صالح ويبرهن على هذا الـــصلاح أمـــام الناس؟ حسناً.. ليس هذا بالشئ الصعب أو المستحيل وقـــال لنفسه:

– لو على السجاير ممكن نخفها شوية ويمكن لو ربنا كرمنا أبطلها.

وجد أن اليوم مناسب للبداية، في أيام الجمعة الماضية يكون عادة نائماً في مثل هذه الساعة.. ولكن ربما تكون هذه إشـــارة من الله، أنه مستيقظ قبل الصلاة بمدة كافية في نفس اليوم الذي نوى فيه إصلاح نفسه والفضل كما يبـــدو لـــذلك الـــواعظ الشاب.

– حلقة النهاردة كان فيهـــا دروس كـــتيرة..يلـــلا يـــا شباب..يللا يا بنات.

تمتم:

– وماله ..هنبقى ميت فل بإذن الله ..ويكمن كمان ابقـــى أقرأ صفحة ولا صفحتين قرآن كل كم يوم واديني برضة مش هاسيب حياتي وأدّروش.

دخل إلى الحمام حتى يغتسل ليزيل عنه جنابة الليلة السابقة وكان حماسه على أشده عندما خرج من الحمام ليرتدي ثيابـــه

حتى ظن أن بداخله ساعتها من الخير ما يكفـي لأمـة مـن الصالحين، وردد في نفسه تلك الآية التي كان يسمعها أحيانـا واعتقد أن هذه مناسبة جيدة لقولها:

- الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

استعد للنزول إلى الصلاة بعد أن أذن الآذان بقليل وعدّ من حسن حظه أن إمام الزاوية القريبة من العمارة "راجل لذيـذ" حسب تعبير جيرانه يصلي كل جمعة بقل هو الله أحد والكوثر ولا تستغرق خطبته أكثر من عشر دقائق أو ربع الساعة علـى أقصى تقدير أو في المناسبات مثـل رأس الـسنة الهجريـة أو العيدين.

ضط على زر المصعد فانفتح بابه ودخلـه لـيترل بـه إلى الأسفل ..وأثناء هبوط المصعد سمع صوتاً ثائراً يصرخ: "كـل شوية طالعين نازلين..سيبوا الأسانسير يا ولاد الكلب..عمـارة وسخة ينعل أبوكم سكان".

ثارت نفسه فور أن ميز الصوت.. كان صوت الحاج جميل الذي يسكن في الطابق الخامس، المعروف بخلافاته معـه ومـع والده لأسباب تعددت منذ أن سكن في هذا المبنى، من تكاليف صيانة للمصعد رفض دفعها، وإصلاحات لمواتير الميـاه تحمـل دفعها عنه سكان آخرون وأخيراً كرهه لوالده وكره والده لـه

"الله في الله" كما يقولون ونفورهما من بعضهما كما تنفر الملائكة من الشياطين.

ضغط على زر الإيقاف ليوقف هبوط المصعد ثم على زر الطابق الخامس وتمتم والمصعد يهبط نحو الطابق الذي يقف به الآن غريمه، أكثر من يبغض في هذا المبنى:

"ماشي..طيب وربنا لأنا نازل لك ومعرفك مين اللي ابن كلب بجد" قالها وبصق في أرضية المصعد كبروفة لما سيفعل عندما يلمح وجه الحاج جميل المقيت.

***

بعد أن عاد الحاج جميل من صلاة الفجر في المسجد إلى بيته وبعد قراءة الورد اليومي من القرآن، دخل لينام قليلاً إلى موعد صلاة الجمعة، فالحاج يصلي كل الصلوات تقريباً في المسجد منذ أن ترك عمله وطلع على المعاش المبكر ولا زال أمامه بضع سنوات حتى يبلغ الستين، ولهذا كانت هناك أقاويل في العمارة ترجح أنه خرج من العمل تجنباً لفضيحة ما، أي أنه آثر أن يخرج بكرامته دون أن يطرد من العمل فقد كان معروفاً عنه عدم الأمانة وتمسحه الغريب في اسم عائلة من كبار رجال المال والأعمال في البلاد ونصبه على الناس باسمهم الذي يتشابه صدفة مع اسم جد بعيد له.

ومنذ طلوعه على المعاش يقضي يومه في النزول إلى المساجد وبعد انقضاء الصلوات ينقض على أي شخص يعرفه يراه ولـــو صدفة في الشارع ويحدث هذا ويجادل ذاك ويشاكس الباعـــة الجائلين ويسب أطفال البواب وإذا باليوم ينقضي ويبدأ يـــوم جديد يعيشه من دون أن يقتله الملل.

نام إلى ما قبل الصلاة بقليل حتى استيقظ لاعناً إمرأته التي لم توقظه مبكراً بما يكفي وعلا الصوت في ســـيمفونية زوجيـــة صاخبة تعود سكان العمارة النوم والاستيقاظ على أنغامها التي تندلع بين الاثنين في معظم الأيام.

توضأ الحاج بعد تلاوته لبعض الأدعية واستعد للـــنزول إلى الصلاة التي قاربت خطبتها على الانتهاء، وخرج مـــن شـــقته وضغط على زر المصعد الذي لم يستجب وظل يصعد ويهـــبط متجاهلاً الطابق الخامس، ولأنه صغير العقل كما يعرف أغلب السكان، غضب الحاج جميل غضباً أضاف إلى ما يحس به بعد مشاجراته التقليدية مع زوجته وأولاده، وأحس أنه لا أحـــد في العمارة يحترمه ويقدره، حيث كان يحب الظهور أحياناً بمظهـــر "كبير المنطقة" لذلك كان يرتدي ذلك الجلباب وعليه الطاقيـــة ويمسك بعصا لا يحتاجها في محاولة يائسة لاكتساب شئ مـــن الوقار يجعله أشبه بالعمدة أو شيخ البلد رغم أنه لم ير الريف في حياته.

عدها إهانة أن يتجاهله ركاب المصعد إلى هــذا الحــد ولا يوقفونه ليستقله معهم، فرفع عقيرته باللعنات علــى الــسكان "اللي مش متربيين" كبداية لوصلة شتائم انتهت بقوله:

"سيبوا الأسانسير يا ولاد الكلب..عمارة وســخة ينعــل أبوكم سكان"، ومن سوء حظه أن ابن غريمه الأول في العمارة كان في المصعد عندما قال هذه الجملة وكان هو من أصــابته وأصابت أباه اللعنات والاتهام بأنهم كانوا كلاباً في قديم الزمان ثم دارت سلسلة التطور دورتها الداروينية لتصل بهم إلى مرحلة الآدميين التي لا يستحقون البقاء فيها.

***

انفتح باب المصعد بعنف يدل على مذبحة ستقع بعد لحظات قليلة، وخرج منه ذلك الفتى محمر الوجه ثائر الأعصاب هاتفــاً بصوت رجل ينوي ارتكاب جريمة قتل: "عايز ايــه بقــى في يومك الأسود ده؟"

فرفع الحاج عصاه عليه يريد ضربه وصرخ فيه: "عيل قليل الأدب مش متربي" ولكن الفتى أمسك بالعصا بذراعه ضــاغطاً عليها وقال: "مش معايا أنا يا راجل انت..ده أنا أكسر دماغك قبل ما تلمسني بيها".

صرخ الحاج:

– اخرس قطع لسانك..حيوان ابن حيوان.

وهوى بيده على وجهه بقوة غير معتادة منه.

أطارت الصفعة كل ما بقى داخل الفتى من عقل فأمسك بالرجل كالمجنون وطرحه أرضاً وأمسك بيديه عنقه، وكان الصوت قد دفع الجيران في نفس الطابق إلى الخروج لمعرفة ما الذي يحدث، فأمسك أحدهم بالفتى وجذبه من ثيابه ليبعده عن الرجل وأقام الباقون الحاج على قدميه وردوا له عصاه والفتي يصرخ: "سيبني يا أحمد..سيبني عليه"وظل الآخر قابضاً عليه وهو يحاول الإفلات منه والنيل من الرجل والبعض يردد:

- عيب عليك ..ده قد أبوك.

- حصل ايه بس يا اخواننا ما تهدوا".

وفي وسط السباب واللعنات قال أحدهم:

- خلاص يا اخواننا ..صلوا على النبي.

ولم يجبه أحد.

أخذ بعضهم يهدئ الحاج ويفسرون الأمر بأنه "عيل وغلط" ويقولون جمل من قبيل "يا راجل عيب تعمل عقلك بعقله" "ده برضه كلام يا حاج ده انت الكبير" وهو يصرخ من مكانه شاتماً الولد وأباه وعائلته بأموالها وأحيائها.

حاول الآخرون إخراج الولد من المكان وإنزاله إلى أسفل

العمارة، كان أحدهم صديق له فقال:

- يا رجالة سكتوا الراجل ابن ال- ده قبل ما أمد إيـــدي عليه.

أوصلوه إلى الشارع وهم يهدئونه ثم تركوه مـــع صـــديقه الذي قال:

- اهدا يا عم .. راجل خرفان ابن - قال كلمتين وانـــت اديته على دماغه.. خلصنا مش محتاجة ده كله.

فرد الآخر :

- بس وربنا ما أنا سايبه..بس لما أشوفه تاني.

قال الأول:

- ما خلاص يا عم.. ده انت جبتـــه في الأرض وخليتـــه عامل زي الفرخة وقال ايه كان عامل لنا فيها قبل كده كـــبير الحتة.. انت عرفته مقامه صح.. كبر دماغك بقى وخد دي.

وأخرج له سيجارة أخذها الفتى وأشعلها ثم قال والسيجارة في فمه:

- الراجل ده لو كح معايا تاني وربنا لأطلع ميتينه.. والمـــرة دي بقى مش عايز أقول لك هأعمل له ايه بعصايته دي.

- يا عم كبر دماغك وخلينا في موضوعنا..النهاردة الساعة

سبعة نروح الفيلم واحنا مظبطين مع بقية الشلة كلها.. دلوقت تعالى معايا عشان تروق شوية.

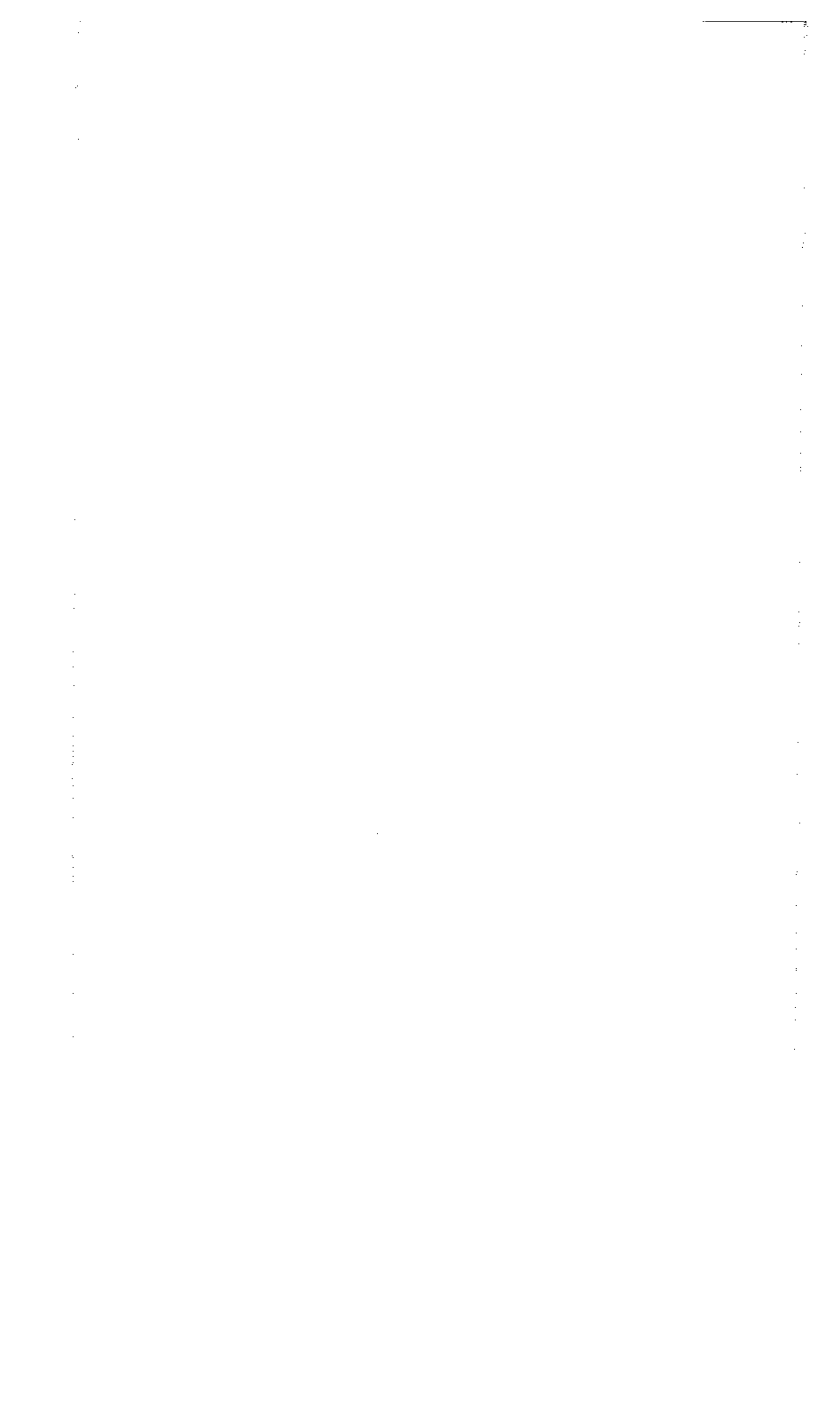
- على فين؟.

- تعالى نروح القهوة اللي على الناصية.. نشيش ويمكن نقابل أي حد من أصحابنا نجيبه معانا في المشوار ده.

- ماشي..يللا بينا.

وانطلقا وسحابة من دخان السجائر تظللهما تصاعدت إلى السماء وطيرها الرياح إلى أعلى حيث لا زال الجيران يهدئون الحاج الذي ما انفك يلعن وكأن لديه مخزوناً لا نهائياً من البذاءة، ومشيا في الطريق إلى القهوة وعبر الشارع استقبلتهما وجوه العائدين من المساجد بعد أن انقضت الصلاة.

نظرات إلى سراب



أجلس في الكافيتريا المطلة على شاطئ النيل، أشعة الشمس تأتي من وراء ظهري وتضفي الدفء على المكان، تتبدد غيوم الشتاء التي كانت كثيفة حتى هذا الصباح فقط.

أنظر في ساعتي وأتململ في مجلسي، أنتظرها، هي لم تتأخر كثيراً، خمس دقائق فقط حتى الآن، ولكني نافد الصبر، لا أطيق الانتظار حتى مجيئها، هي أيضاً كانت متشوقة جداً لرؤيتي وسماع أخباري منذ أن اتصلت بها تليفونياً لأخبرها بأن لدي مفاجأة ستسعدها، ألحت علي لكي أبوح بها ولكنني لم أفعل، فضلت أن أؤجل هذا لحين ألقاها.

تطل علي فجأة كإشراق الشمس بعد ليل شتوي طويل، ماء النيل يجري تحت قدمي ويتدفق فأحس وكأني ملك مصر، ثم تجلس هي أمامي بابتسامتها الجميلة ، تحييني وتعلن تحرقها لمعرفة المفاجأة.

أمد يدي لألمس يديها المستندتين إلى المنضدة، وأخبرها ببطء

وبلهجة تمتلئ بالفخر أن معرضي الأول للفن التشكيلي قد ظهر في برنامج من إعداد قناة النيل الثقافية، وأن البرنامج قد أذيع بالفعل منذ ساعتين فقط، لقد أصبحت مشهوراً جداً، ولتستعد هي عندما نمشي معاً أن تتحمل العشرات الذين سوف يستوقفونني في الشوارع راجين الحصول على توقيعي على الأوتوجرافات.

تصرخ في دهشة وسعادة، تتوجه كل نظرات الناس في الكافيتريا إلي وأتأكد أنني أصبحت مشهوراً بالفعل، أجذب نظرات الناس وإعجابهم الظاهر بعد سنوات لم يعرف اسمي فيها إلا هي وأساتذتي.

تتفجر السعادة في ملامح وجهها الرقيقة، وتكاد دموع الفرح أن تسقط وهي تلمع وتتلألأ في عينيها البنيتين، تهنئني بحرارة وتقول لي أني أستحق كل خير، تتراجع في مقعدها من فرط الارتياح وترجع برأسها إلى الوراء فيهتز شعرها الطويل المضفر على هيئة ذيل حصان في الهواء.

أتطلع بوجهي إلى السماء فتضيئه أشعة الشمس، أديره يميناً ويساراً فألمح نظرات الناس الموجهة إلينا وأعين بعضهم المعلقة على كل منا، تغمر قلبي الفرحة من جديد، وأخبرها بحماس أن اللحظة التي كافحنا من أجلها لمدة سنين قد جاءت أخيراً، لقد

لقيت التقدير الذي أستحقه وهناك الكثير في الطريق، صبرت هي أيضاً كثيراً معي، رفضت الكثيرين وتمسكت بي وهي تحفة فنية أبدع فيها خالقها، هي أجدر بنحت تمثال من أجلها من كل أفكاري التي جسدتها في الحجر منذ أن جئت إلى العالم، ظلت في كفاحها معي طويلاً ولم تيأس في لحظات كاد أن يفارقني فيها الأمل، كان كفاحي هذا طويلاً، منذ أن كنت أنحت في الأحجار تماثيل صغيرة وأصنع من طين الشوارع ورمال البناء نماذج وأنا طفل، إلى أن أصررت على الالتحاق بالقسم الأدبي لا العلمي في الثانوية العامة رغم نبوغي في العلوم، إلى إصراري الأشد على دخول كلية الفنون الجميلة رغم معارضة كل من عرفني وأولهم أفراد عائلتي.

"كانوا عايزيني أدخل جرافيك أو ديكور أو أي حاجة تجيب فلوس.. وقامت في البيت حرب لما دخلت قسم نحت".

تعترض بابتسامة لطيفة وتقول: "ومالهم بتوع ديكور يعني؟"

أردف أنا على الفور: "أجدع ناس.. وأجمل ناس".

تبتسم بحياء وتنظر إلى الأرض السيراميكية ذات النقوش بينما أتابع: "وبرضه نفذت اللي في دماغي.. الإصرار شئ مهم جداً علشان حياة الإنسان.. والله أنا صبرت كتير، وعافرت في الدنيا كتير، تمثالي عن القضية الفلسطينية، كان مشابه جداً

لشخصية حنظلة الكاريكتيرية لناجي العلي، عملتها من غير ما أسمع عن ناجي العلي، كان نموذج رائـد، عظـيم، تعـبيرات الوجه، التصميم، كل شئ، دكتور إبراهيم قـال لي أن قيمـة التمثال ده في النحت توازي قيمة الموناليزا في الرسم، وتنبـأ لي بمستقبل باهر، ودكتور محسن قال إنه حاسس إني ممكن أبقـى مختار القرن الحادي والعشرين".

"تعبت، اتقدمت في مسابقة لوزارة الثقافة وعملت لها تمثال اسمه "الغلابة" وبعدها خرجت من المسابقة أول ما عرفـت أن مطلوب منها صنع نماذج لتماثيل للرئيس تـتحط في مـدخل مدينة جديدة.... أنا بأقول لك كل ده ليه..ما أنـت عارفـاه أكتر مني".

بدا على ملامحها شئ من الاستغراب وهي تنظر إلى شئ ما خلفي، أنظر خلفي لأجد رجلاً يتطلع باتجاهي مبتسماً ابتسامة كبيرة، أحييه بابتسامة باهتة وأخبرها أن مفعول البرنامج قـد سرى بالفعل، ومضت سنوات الفنان المغمور لتتفـتح أبـواب الشهرة أمامي.

"الحمد لله.. أخيراً لحظة فرح.. كنت خـايف أني مـش هأعرف أفرح في حياتي كلها.. رضيت وقلـت أن ده قـدر الفنان. أعيش مجهول ومعاييش ولا مليم وغيري من اللي باعوا وباسوا الأيادي قاعدين على بنوك فلوس".

تطلب مني أن ندفع حسابنا ونغادر المكان، أراها مترعجة وكأن نظرات الناس من حولنا طعنات في كل أنحاء جسدها، وعلى الرغم من ابتسامتها المهنئة التي لم تفارق شفتيها منذ أن أخبرتها بالمفاجأة، ألمح طيفاً من الأسى يجول في عينيها فيبللهما بدموع لم تسيل ولكنها تنتظر، ليس الآن وقت هذا الحزن، لا تفسدي يا حبيبتي لحظة السعادة التي ادخرها لنا القدر منذ سنين ابتلانا فيها بصنوف العذاب، أعلم جيداً أنك قاسيت معي الكثير منذ أن عرفتك، لقد رفعك هذا كثيراً في نظري وزاد من حبي لك في قلبي أكثر مما تتخيلين، أعلم أنني حاولت العمل في كل الوظائف بقدر ما استطعت، وأعلم أنني لم استطع الاستمرار في أي منها، وأعلم أيضاً أن مدخراتي للزواج قليلة بشكل مخجل، ولكن ماذا بأيدينا أن نفعل؟ قد ولدنا فنانين في المكان الخطأ في الزمان الخطأ، ولكننا صمدنا معاً، أعرف أنك بمهنتك تكسبين من المال أضعاف ما أكسب أنا، وأنا لا أرضى بهذا الوضع الشاذ عندما نتزوج، ولكن تباشير القدر قد ظهرت في الأفق الآن، لا بل هي ليست في الأفق إنها على أرض الواقع السحري، أعلم أنني سأتمم عامي الخامس والثلاثين في هذه الحياة بعد شهرين فقط، وأنك لا تصغرينني إلا بعام واحد فقط، هذا حمل ثقيل عليك، وضغط أعصاب وحرج أمام عائلتك لا شك، ولكن الصبر، الصبر، مضى الكثير

وكاد الطريق المظلم أن ينتهي بنور ساطع يضئ حياتينا ويحيلهما إلى حياة واحدة لقلبين يضخان نفس الدم، اطردي الدموع حبيبتي فقد ولى زمانها، أريني ابتسامتك على وجهك المضئ، ابتسامتك التي قادتني في ليالي اليأس الحالكة، ألا ترين كل هذه العيون التي تكاد تقفز من محاجرها نظراً إلينا؟ أنا نجم الآن وأنت ملكة، ولا زال في السحب الخير الكثير، أول الغيث قطرة إذا سقطت تبعها الخير في سلسلة لا تنتهي، جاءتنا الشهرة وسيأتي معها المال والتقدير والسعادة وسننال كل ما نستحقه، وسنتزوج وننجب أطفالاً نعلمهم ما كنت تقولينه لي في لحظات يأسي وما أقوله لك في هذه اللحظة: "إن الله لا ينسى أحداً، وأن الفجر لابد بازغ مهما طال الليل".

تبتسم وتتمالك نفسها، تفر دمعة تسارع بمسحها من على وجنتها، نمشي في الطريق حتى أودعها ثم أواصل طريقي إلى المترل.

أدخل الشارع الذي أقيم فيه، ألاحظ أن الناس تدير وجوهها بعيداً عني، لا أحد ينظر إلي وكأن وجهي مشوه بالجدري، أتساءل فيم كانت نظراتهم إذاً قبل أن أتركها، أطرح الأمر من رأسي وأصعد إلى المترل بعد أن جن الليل لأقرأ الجريدة.

الليل مطبق بمخالبه السوداء على الفيللا القديمة وعلى الحديقة المحيطة بها، تتسلل سيدة في جنح الليل، تجتاز السور الحديدي المحيط بالحديقة بصعوبة، يعلق حجابها بطرف أحد قضبان السور المعدني، تجذبه بعنف وتمضي إلى الأمام، تدخل إلى الفيللا إلى القاعة المظلمة الرئيسية، فيها مجموعة من التماثيل الحجرية بمختلف الأحجام متراصة على الجانبين، ترفع أولها بشق الأنفس عن قاعدته وتتركه ليهوى على الأرض، تتفتت خامته إلى آلاف الشظايا بصخب يصل إلى الخارج، تمسك بالثاني، تمثال نصفي لشخص ما، لا يهم هذا، تفعل به فعلها بالأول، تنتقل في سرعة تحطم التماثيل قبل أن يقتحم بعض رجال الأمن المكان، يضاء النور ، يمسك أحدهم بها قبل أن تصل إلى التمثال الحادي عشر، تصرخ فيهم: "يا كفرة.. يا كفرة.. التماثيل حرام يا كفرة".

يضاء النور في الفيللا وتصل الشرطة إلى المكان، ينتشر فيه رجال الأمن عدة أيام ويتم التحقيق معها لمعرفة ما إذا كان قد حرضها أحد على فعلها، رائحة الخوف عالقة بهواء فيللا الفنان الراحل، لا يطفأ النور ثانية لأيام قادمة عديدة.

***

أتذكر عبد البديع عبد الحي، كان هذا الحادث في الليل أيضاً، يتسلل شابان إلى شقته المتواضعة بمصر القديمة، في رأسيهما الخطة للاقتحام وهما يخمنان مكان مقتنياته الثمينة،

يفاجأن به مستيقظاً داخل الشقة، يضربه أحدهما ويهوى الآخر على جسده المسن بطعنات مطواة، يستغيث ويسترحم فيزيدانه طعناً، يفتشان الشقة بعدها فتكون المفاجأة أنه ليس هناك نقود ولا مجوهرات ولا حتى ملابس فاخرة، يأبيان الرحيل خـــالِيي الوفاض فيفتحان الثلاجة ويلتهمان ما صادفهما فيها.

***

أبكي كما لم أبكي في أقسى لحظاتي طوال السنين الماضية، أستعيد نظرات الناس الشهوانية وأفهم إلام كانوا ينظرون ولماذا توقفت نظراتهم عندما تركتها، أتذكر نظرتها المـــستنكرة إلى الجالس على المنضدة خلفي بابتسامته الصفراء وأسنانه القذرة، أتذكر غبائي وأنا أبتسم له محيياً، أصرخ وكأني أتقلب في نيران الجحيم ولا يسمعني أحد، جيراني نائمون، أفتح النافذة وأنظـــر إلى الشارع، كل النوافذ مغلقة، كل الأهالي نائمون، كل المباني مظلمة، بعض الشباب يدخنون البانجو أسفل أحد المنـــازل في الشارع، في الظلام الدامس أنظر إلى السماء فأعرف أن الفجر لم يحن أوانه بعد.

ما حدش سالم

في أحد أفخم الفنادق في مصر، وفي قاعة أعادت إلى ذهن هيثم ذكريات عن برنامج تليفزيوني رآه ذات مرة عن قصر عابدين، ارتفع صوت المغني الشعبي بأقصى طاقته وكأنه يجهر بأهم حكمة تعلمها في حياته: "مش أي حاجة بيضا حلوة تبقى وزة... ولا أي بنت لابسة cut تبقى مزة".

في القاعة التي علقت على بابها لوحة تحمل اسمي العروسين بحروف انجليزية مائلة إلى اليمين، لم يعل صوت فوق صوت الDJ الذي وضعت له مكبرات الصوت في كل الأركان، بجوار المناضد التي كان يجلس على إحداها هيثم ومعه ابن عمه الذي يكبره بسنة واحدة، ومعهم بعض أقربائهم وأصدقائهم الآخرين.

كان هيثم مقرباً جداً من ابن عمه، فمنذ طفولتهما وهما صديقان، على علاقة طيبة كعلاقة والديهما ببعضهما، رغم أن والد هيثم له خلافات عديدة مع بقية إخوته إلا أن أخيه ذلك كان بالنسبة له كأنه أخيه الوحيد من أم وأب تركا خمسة

رجال هو أحدهم.

ولهذا لم يكن من الغريب أن هيثم كـــان جالـــساً بجـــواره مباشرة يتبادلان الحديث والضحكات في حين أن بقية أقاربـــه الجالسين على نفس المائدة معهما لم يتكلما إلا لماماً. حتى إنهما أتيا إلى هذا الحفل معاً في سيارة ابن العم وكانا قد قضيا معـــاً بعض ساعات قبل مجيئهما إلى هذا الحفل.

وعندما ارتفع صوت المغني الذي تتناقض كلمـــات أغنيتـــه وأصلها بشدة مع رقي المكان، بدأ الشباب في القيام عن المناضد ذات المفارش الحريرية المطرزة بخيوط ذهبية وبدأوا في الإحاطة بالعروسين اللذين دخلا للتو من الباب العملاق الذي تمتد مـــن عتبته سجادة حمراء طويلة ذات نقوش لها طابع فارسي عريق، وعلى جانبيهما عدد ضخم من الموسيقيين حسني الوجوه عليهم ثياب مميزة فاخرة تفوق في ثمنها ثياب المدعوين من أعمام هيثم الآخرين وأولادهم الصغار، في منظر بدا وكأنه تشريفة ملكيـــة لولي عهد بلاد ثرية أو لعله حتى كان كذلك بالفعل.

أحاط الشباب والفتيات بالعروسين وبدأ الكل في الـــرقص، على شتى أنغام أغاني الDJ والفتى الخـــاص بـــه ذو الـــشعر المتهدل على كتفيه، أغاني شرقية وغربية، أهدأها وأعنفها، وفي مركز الدائرة انهمك العروسان في حركات بدت لبعض كبـــار السن في المجلس أنها صادرة عن شخصين تتلبسهما الـــشياطين، وفي خضم التشابك الذي بدأ بموسيقى رومانسية هادئة أتـــت

معها بقبلات متوالية بين الاثنين، تصاعدت النغمات شيئاً فشيئاً مع صياح حماسي لفتى ال DJ يتصاعد كل بضع ثوان ليبدو مع حركات المدعوين جزءاً من حفلة زار لطرد الأرواح الشريرة.

بعد هدوء الحمى تدريجياً، جلس العروسان على مقعديهما في الكوشة، وعاد الشباب والفتيات إلى مقاعدهم ينعمسون ببعض الراحة ربما قبل وصلة أخرى من الرقص، وخلع بعض الشباب معاطف بذلاتهم للتخفيف من الحرارة المتصاعدة في أجسادهم رغماً عن التكييف المركزي في القاعة.

وعلى مقعده الوثير، حل هيثم قليلاً من عقدة رباط عنقه وبدأ في الكلام مع قريبه وأشار إلى فتاة في منضدة مجاورة كانت ترقص منذ قليل بعصبية وكأنها تعاني مغصاً كلوياً حاداً: "مين المزة دي يا زعيم؟"

فرد القريب قائلاً:"دي سالي صاحبة أختي.. كنت أعرفها من زمان كده بس نفضت لها.. ايه؟ داخلة دماغك؟"

أجاب عليه هيثم: "قوي.. تنفع معايا دي يا زعيم؟"

ابتسم بسخرية وقال: "ممكن.. ما هي طول عمرها ذوقها واطي".

لم يبد حتى أنه لاحظ الإهانة بل تحمس وقال: "حلو قوي..

بص تلميذك هيعمل ايه"

أجاب بسخرية أكثر: "يللا يا واد.. قوم ارفع علم مصر.. يخرب بيت دناوتك".

وعند افتتاح البوفيه وقيام المدعوين لتناول الطعام حاول هيثم الاقتراب من المكان الذي وقفت فيه الفتاة وبدأ بافتعال أي سبب للحديث معها، بدا في البداية أنها تضيق به، ولكن بعد دقائق بدأت تضحك لدعاباته والنكات التي يلقيها، والتي اشتهر بها وكانت جواز سفره وتأشيرته للدخول إلى عالم قريبه الثري وأصدقائه، وجعلتهم يتغاضون عن أسئلة تقليدية يسألونها كثيراً، برع هيثم في التملص منها بحيل ماهرة مثلما كان يجيب على من يسأله أين يسكن فيرد هيثم بأنه يسكن في بولاق، وعندما لا يعرف المتحدث الآخر عادة أين تقع بولاق هذه على الخريطة، يجيب هيثم بلهجة أستاذ تلقى سؤالاً غبياً من طالب لا يعرف قدره بأنها تلك المنطقة الواقعة بين الدقي والمهندسين والتي اشتق اسمها من كلمة فرنسية تعني البحيرة الجميلة، وهذه البحيرة كما كان يقول اسم خاطئ أطلقه الفرنسيون على النيل الذي تطل عليه المنطقة كلها.

تواصل الحديث حتى قبلت بالجلوس على مائدته التي يجلس عليها أيضاً صديقها السابق الذي لا يقدر هو على البعد عنه أو

مخالفته، وتبادلوا جميعاً التحيات المعتادة وواصل هيثم الحديث مع سالي بينما وجه ابن عمه الحديث إلى أصدقائه الآخرين متندراً بقريبه الهيثم المبتدئ الذي يأمل له أمام أصدقائه أن يستفيد من خبرات السادة الأعلى منه في شتى المجالات.

أراد هيثم أن يثبت لأستاذه مواهبه وجدارته بهذه التلمذة، فهو يجالس فتاة فاتنة يبدو جمالها بثوبها الأسود الفاضح من مصمم أزياء شهير أكثر مما سيبدو لو خلعته، فما تبقى مستوراً من جسدها أكثر فتنة وهو تحت غطائه مما يستطيع هو تخيله في أفحش خيالاته. بدت وهي معه تمازحه على المائدة كأمنية عزيزة تحققت لفورها، لا يبالي أن أستاذه الباشا الجالس على بعد سنتيمترات منه ومنها قد لاك من قبل تلك اللقمة التي صادفها هو الآن وكان هو سعيد الحظ الذي يلحظها ويمد يده ليلتقطها قبل الآخرين.

وهي وإن لن تضع هيثم أبداً في منزلة صديقها السابق الجالس بجواره الآن كما يبدو، فهي على الأقل تقبله، لمح في عينيها آلاف الابتسامات ترجمت شفتاها منها القليل، لمحة إعجاب خفية حتى وإن كانت إعجاب إمبراطور بمهرج جديد في البلاط.

لم يدع هيثم الفرصة تفوت، تشبث بهذه اللمحة وكأنها أمل في النجاة من هلاك محقق، حدثها عن كل شئ ساخراً، عن مواقفه الطريفة في طفولته التي يسمع عنها من كل أفراد عائلته،

عن تفوقه الدراسي الذي لم يحرمه من القدرة على التواصل مع الناس ونيل حظوهم، عن كلية السياسة والاقتصاد التي يـــدرس بها وكيف يعيش فيها، في عالمه المهم الذي يجهز فيه للالتحـــاق بالسلك الدبلوماسي فور تخرجه وإن لم يذكر الدور الضروري الذي ينتظر أن يقوم به عمه بإلحاح ابنه في هذه الخطوة، العالم الذي أعجب فيه أساتذته به وقارع فيه المتطـــرفين في كليتـــه، ذلك العالم المثير الجديد عليها الذي تتشوق هي إلى مـــشاهدة خرائطه، عالم المؤسسات والجامعات الحكومية والمناطق الشعبية والشعب الطيب الظريف الذي يسلي بشكل أفضل من أي فيلم أمريكي أو أي أغنية روك اند رول، الذي يعيش فيـــه هيـــثم ويعمل فيه كحلقة الوصل بينها وبينه، والذي لا يضايقه فيـــه كما قال سوى الأولاد الفلاحون الكثيرون كالذباب في كليته، والذين لا يطيق تخلفهم رغم طيبة قلوهم، ولا يطيق أســـاليبهم في التعامل القادمة من القرى السقيمة أو في أفضل الأحوال من المراكز البعيدة، هم وفتيات الجامعة ذوات المستويات المتواضعة المنتمية لقاع المجتمع واللاتي يعاملهن كزميلات ولكنهن لا يلبثن أن تقع إحداهن كل فترة ما في حبه. وهم جميعاً كما أخبرهـــا يكونون أحياناً مسليين تصدر عنهم بقـــصد أو عـــدم قـــصد مواقف طريفة قص بعضها عليها، ولكنه تواضـــعاً لا يخـــبرهم بعدم استطاعته النزول إلى مستواهم باتخاذهم أصدقاء حقيقيين أو برفع التكليف عن أي علاقة معهم، لأنه يعرف مـــن هـــم أفضل منهم وهؤلاء هم الذين يرضى ويسعد باتخاذهم زمـــلاء

وأصدقاء ومقربين كما مط حروف الكلمة وغمز بعينه وهو يقول "Intime"

وعندما انتهى الحفل شعر هيثم بأنه حصل على شهادة التخرج من أكاديمية العلاقات الاجتماعية، العامة والخاصة، عبر مانع حصين، أسوار عالية تفصل بين بولاق الدكرور وما جاورها من المناطق الراقية، بخطة رسمها له والده المخضرم، الحاصل على الدكتوراة من ذات الأكاديمية، الذي وجهه كثيراً لمصادقة ابن أخيه وكسب وده.

ها هو قد احتل مكاناً في قلب ابن عمه يجعله يتردد قبل أن يفضح ما يسيئ إليه أمام أصدقائه هو الذين صاروا أصدقاء هيثم أيضاً، يجعله يحتمل لصوقه به بل ويسعد به أحياناً، تابع أمين يجاريه في كل نزقه، يغضب لغضبه على أي مخلوق ولا يغضب لغضبه عليه هو، قد تعود على هيثم مثلما تعود على سجائره المستوردة، التي لا بديل عنها إلا بما يماثلها.

ولذلك لم يجد غضاضة في أن يقل هيثم ومعه سالي في سيارته في طريقهم إلى منازلهم، ولم يسخر من هيثم إلا في سره حينما دعا سالي إلى ركوب السيارة معهما ليوصلاها إلى منزلها، بل ولم يجد مانعاً في أن يخلفه هيثم في العلاقة بها إن نجح، فمنذ عرفه بدأ يتعود على إعطاء ما يستغني عنه لمن لا يستغني عنه، نوع من الإحسان يؤديه أحياناً، طواعية في أوقات وعن ضيق وبعد إلحاح واستعطافات في أوقات أخرى.

انصرف كل إلى حال سبيله، فصعد البعض إلى غرفهم في نفس الفندق ممن حجزوا فيه ليلة أو ليلتين بمفردهم أو مع آخرين يضيفونهم في ليلة صاخبة كهذه أوشك فجرها على البزوغ ولا زال فيها متسع للهو، وانصرف الزوجان في سيارتهما إلى المطار ومعهم بعض أقاربهم لتوديعهما في رحيلهما إلى عاصمة أوروبية ما.

وبعد توسلات خافتة في غياب سالي من هيثم لابن عمه وافق على إقلالهما في سيارته إلى منزليهما الكائنين على تباعدهما في طريق ابن العم إلى منزله، كتصرف رجولي يعجب الفتاة ويرفع من شأن هيثم لديها.

انطلقت السيارة فرنسية الصنع، تنطلق من السكون إلى سرعة مائة كيلومتر في الساعة في ثوان قليلة، تحمل مقدمتها شعار شركة فرنسية عريقة كانت من أوائل صناع السيارات في العالم، كان الفتى يهوى ذلك النوع الفرنسي رغم أنه لم يكن الأفخم مع أنه كان أيضاً باهظ الثمن، دفع فيها مبلغ يقدم ربعه كحد أقصى للقروض في بنك ما للتسليف الزراعي في قرية ينتمي إليها والد هيثم، إلا أن ذلك لم يكن يعجب أصدقاء الفتى، فهذا الطراز ليس شائعاً بين الشباب، لا الماركة ولا اللون الأسود الفاحم الذي اختاره لها كان يناسب الذوق الجديد المولع بالمركبات الضخمة التي يستخدم بعضها الجيش الأمريكي.

حاول ابن العم ألا يتكلم كثيراً حتى لا يبدو سخطه الــذي ينمو شيئاً فشيئاً بعد إلحاح هيثم عليه وخداعه إياه بأن تركــه يجلس على مقعد السائق ولم يجلس بجواره، بل فــتح البــاب الخلفي وجلس بجوار سالي، فقفزت في عقل الفتى تلقائياً فكرة تصور له أن هيثم وسالي يعتبرانه الآن خادماً لهما، وتبدى لــه بعين الخيال صورته سائقاً بائساً يقود السيارة لسيده وســيدته الجالسين خلفه منهمكين في الحديث الحار واللمسات الطائشة، ثم يتوقف أمام مترليهما ويجري ليفتح باب الــسيارة ويــنحني داعياً إياهما إلى التفضل بالترول بل وربما لطمه ســيده علــى وجهه صارخاً: "انت بطئ ليه يا حمار؟!"

أحكم ابن العم يديه على عجلة القيادة بينما جلس هيــثم خلفه على الأريكة الخلفية محاولاً أن يوفق في كلامه بين انتزاع إعجاب سالي الجالسة بجانبه وبين عدم إثارة حنق ابن عمه.

انطلقت السيارة مجتازة جسراً مبنياً على النيــل لتــدخل في شارع طويل مظلم بعض الشئ، خالي بطبيعة الحال من المــارة والسيارات في مثل هذه الساعة من الليل.

ترك الفتى هيثم يكمل حديثه الباسم عن الحفل وكيــف أن العريس بلدي المظهر، وأنه لا يعرف كيف قبلت قريبته الزواج منه وهي تعلم بطباعه التي تندر عليها بأنها "بيئة"، ضــحكت سالي قليلاً وابتسم الآخر وهو يقود ابتسامة ساخرة فبدا وكأن

شيئاً من الاشمئزاز تجاهه ينسال من ركن شفتيه الأيمن، إلا أنه لم يعلق بشئ، فأكمل هيثم بلا تردد ليصل إلى أن المكـــان لــيس سيئاً "مش وحش..اهو شغال" ولكن الطعام المقدم في البوفيه لم يكن بالجودة المناسبة ولا كان لائقاً بمستوى المكان والموجودين فيه، وهنا أفلتت من فم ابن عمه ضحكة صاخبة بـــدا وكـــأن زجاج نوافذ السيارة الأسود سيتحطم من صوتها، وقال:

"عارف يا هيثم..انت بتفكرني بواحد بلدياتنا داخل cafe شيك لقى الكوباية على الترابيزة مقلوبة.. نادى على الجرسون وقال له "جايبين لنا الكوبايات مـــسدودة؟" الجرســـون مـــا اتكلمش وعدل الكوباية راح هو باصص وقال له: " وكمـــان جايبينها مخرومة؟!"

ضحكت سالي مطلقة نغماً مفاجئـــاً مـــن بـــين شـــفتيها الجميلتين، موسيقى ذات وقع مستفز غير مألوف لأذن هيـــثم، الذي حاول أن يكتم غضبه ولا ينسى نفسه فنظر نظرة حانقة إلى الأمام قائلاً: "ليه كده يا باشا؟...ما بلاش أنا؟"

استدار ابن العم إلى الخلف وأمسك بيـــد واحـــدة بمقـــود السيارة، ونظر إلى هيثم بعينين محتقنتين قليلاً وبلهجة بدا فيهـــا عدم الاتزان ربما من جلسته لفترة من الوقت في قاعة مجـــاورة مخصصة لمن يريد أن يجلس على راحته بـــدون التقيـــد بمنـــع المشروبات الروحية في القاعة التي كان هيثم جالساً فيها، وقال بلهجة بدت ساخرة ولكن بخاراً من الغضب تـــصاعد فيهـــا

وتكثف في آخر كلمة:

"يعني ايه بلاش انت ياد؟ ايه؟ انت نسيت نفسك ولا ايه؟"

لم يبد على سالي أنها تبالي كثيراً بهذا الموقف فكانت ناظرة إلى الأمام نظرة من لا تشغل باله ذرة من هم، وفجأة هتفت للفتى أمامها بصوت عال: "حاسب..حاسب..فيه حد قدامك".

فاستدار بسرعة ونظر أمامه وضغط على المكابح بكل قوته، أبطأت السيارة سرعتها كالرصاصة إذا اخترقت جسم حي، وصدر من الإطارات التي تحمل نفس الشعار الفرنسي صوتاً عنيفاً كحشرجة محتضر لتوقف الكارثة المنقضة على ذلك الجسم الذي بزغ من قلب الظلام، ولكن بعد فوات الأوان، فبعد ثانية واحدة سمعوا صوت ارتطام المعدن القاسي بجسم لين وانطلقت صرخة لم يقدر الليل على كتمها.

***

كانت الساعة الثانية والنصف صباحاً عندما وصل القطار الذي يستقله الحاج سالم قادماً من الصعيد ومعه أوراق تحويله من المستشفى التعليمي لجامعة جنوب الوادي في محافظة قنا إلى القصر العيني المستشفى الجامعي الأشهر في مصر بعد أن

استعصت حالة ساقه على إمكانيات المستشفى الصغير فاضطروا إلى تحويله إلى القاهرة.

ومنذ أن أصيب في ساقه برصاصة تسببت في كسر بسيط اعتبر تافهاً بالنسبة لباقي الإصابات التي كانت تستلزم النقل من الجبهة إلى المستشفيات العسكرية في المدن في حرب ٧٣، فقد تم علاج سالم في مستشفى ميداني بسيط بعد انتهاء معركة كبيرة وقبيل وقف إطلاق النار، حتى إنه عندما كان في المعركة وأصيب بهذه الإصابة لم يشعر بها حقاً وإنما بدأ يحس بأن ساقه ليست على ما يرام بعد انقضاء يومين كاملين عندما انتهت المعركة وبدأت وحدته في التحرك إلى موقع آخر.

منذ ذلك الحين تؤلمه ساقه أحياناً وعلى الأخص في فصل الشتاء، ألماً محتملاً لا يقعده عن عمله، والحق أن أمثاله لا يقعدهم أي ألم أساساً عن أعمالهم، فاعتاد تحمل الألم وعاش للعقود التي تلت الحرب يعمل ويزرع أرضه الصغيرة في بلدته الريفية، الأرض التي يعتبر معدماً على الرغم من امتلاكه إياها، البلدة التي يعتبر فيها وحيداً منذ أن قضت زوجته الحاجة نحبها منذ بضع سنوات ومنذ أن سافر أبناؤه الخمسة للعمل في القاهرة منذ سنين لا يذكر عددها، على أن ما سمعه عنهم يبشر بالخير، فأحدهم على الأقل قد أثرى للغاية وهو على علاقة

طيبة بأحد إخوته الأربعة على أن بينهما وبين إخوهم الثلاثـــة الباقين -وإلى حد ما وبدون إعلان، بينهما وبين أبيهما- مـــا صنع الحداد.

عندما لاحظ الحاج سالم بمرور السنين أنه لم يعد موجـــوداً في الدنيا بالنسبة لأبنائه، لم يرد إزعاجهم وآثر التقوقع في بلدته ممضياً حياته بين زوجته وبين أرضه، إلا أن الاثـــنين أخـــذا في الرحيل بعيداً عنه، فتوفيت زوجته وبدأت الـــديون تحاصـــره وارتفعت تكاليف زراعة الأرض مع انخفاض الربح وانـــصراف من يعاونونه عنه، إلا إنه وقد قبل بالقدر عند رحيل زوجتـــه، فهو ليس مستعداً على الإطلاق للتخلي عن أرضه التي ورثهـــا عن أبيه الذي أعطته إياها الثورة بعد صدور قانون الإصـــلاح الزراعي، والتي لم يغب عنها إلا في السنوات الـــتي قـــضاها في الجيش مشغولاً بأمر أرض أكبر هي أرض مصر كلها.

ولكن الصبر إن خفف الآلام لم يشف الأمراض، و لم تعـــد قوة الشكيمة تجدي أمام الروماتيزم الذي انطلـــق يخـــرب في جسده، حتى صعبت حركته وثقلت شيئاً فشيئاً طوال الـــسنة الماضية، مما اضطره بعد نفاد الصبر والوصفات من العطـــارين ومن الجيران إلى حل يكرهه كما يكرهه معظم الفلاحـــين أو يتشاءمون منه، هو اللجوء للأطباء والمستشفيات.

إلا أن هذه الخطوة لم تكن بالسهولة التي كان يتصورها، فبعد ساعات الانتظار وعشرات الزيارات للمستشفى الجامعي ونفقات السفر من القرية إلى المدينة والتحاليل في مختلف المعامل والعذاب الذي تحمله هو وجاره الطيب الذي كان يتطوع أحياناً بمرافقته في كل هذا للحصول على بعض الأدوية التي وصفها له الأطباء من التأمين الصحي، تبين أن الحالة تستدعي تركيب مفصل صناعي، وهذه على ما يبدو عملية معقدة لا يمكن للمستشفى إجراؤها فتقرر إحالة الحاج سالم إلى مستشفى القصر العيني في القاهرة لإجراء العملية.

وحتى الوقت المحدد للسفر إلى القاهرة ظل الحاج سالم مهموماً يفكر كيف سيسافر ومن سيرعى الأرض في غيابه، وكيف سيمكث في القاهرة وعند من، ولأي مدة سيحتاج إلى الراحة بعد العملية، وهل ستسمح العملية إذا نجحت بممارسة عمله في أرضه ثانية أم لا وما التكاليف التي سوف يتحملها في هذا السفر ولأي مدة سوف يغيب عن بلدته.

استقر به الفكر إلى أن يمكث عند الوحيد من أبنائه الذي يعرف عنوانه في القاهرة جيداً، وبرغم إلحاح جاره لم يقبل بأن يثقل عليه بالسفر معه إلى القاهرة لتوصيله إلى ابنه، وإنما اكتفى بأن ودعه جاره إلى محطة البلدة وعهد إليه بالعناية بالأرض في غيابه الذي تمنى الاثنان ألا يطول.

وعندما نزل الحاج سالم في محطة مصر في القاهرة حمــد الله ألف مرة على أن القطار قد وصل بسلام على الرغم من أنه قد تأخر حوالي ست ساعات في مجيئه إلى المحطة التي ركبه منــها، ورأى الحاج أنه من غير اللائق زيارة ابنه في مثل هذا الوقــت، فرأى أن يصل إلى مستشفى القصر العيني عله يجــد شخــصاً يسأله عن من يقدم إليه أوراقه وتحاليله ويعرف منه ميعاد إجراء العملية، ثم يذهب بعد ذلك إلى ابنه عندما يكون الصباح قــد أقبل.

تكفل أولاد الحلال الذين كانوا قليلين جداً في هذه الساعة بدله على الطريق إلى القصر العيني، ووصل إلى الشارع الطولي المؤدي إلى آخر يقع عليه الباب الخلفي للمستشفى ليسأل هناك عن مكان العيادات الخارجية، وفي لحظة عبوره الشارع الساكن الخالي من السيارات والمارة تتابعت في ذهنه الأسئلة: ترى هــل سيعيش بعد هذه العملية؟ وهل ســيظل صــحيحاً إذا عــاش بعدها؟ لم يكن يخشى الموت كثيراً فقد رآه مرات عديدة طوال سنوات على الجبهة حتى لم يعد شيئاً غريباً بالنسبة لــه، رآه في أعنف صوره عندما تنفجر طلقة مدفع في جسم إنــسان فــلا يتبقى منه إلا أشلاء بحجم طوابع البريد، ورآه في أرق صــوره عندما يصحو الناس في القرية من نومهم ليعلموا أن فلاناً مــن جيرانهم لم يصحو من نومه هذه المرة ولن يصحو منه أبــداً إلا في يوم البعث، دفن أقرب الناس إليــه، في رمــال الــصحراء مكفنين بملابسهم العسكرية في نعوش من الدماء، في جوانــب

القرى في المقابر الواقعة على الضفة الأخرى من النيل، زمـلاء دفعة في الجيش وأصدقاء وجيران وأقـارب وإخـوة وآبـاء وأمهات، في أرذل العمر أحياناً وفي العقد الأول منـه أحيانـاً أخرى. لم يخش الموت بقدر ما خشي العجز، دعـا الله آلاف المرات ألا يعيش عاجزاً معدوم الحركـة أو العقـل أو الإرادة، يعتمد في وجوده على آخرين يحبونه لفترة ثم يملون من حياتـه وحياهم معه، ويتمنون لو رحل عنهم.

هل حان دوره هذه المرة ؟ هل ينضم إلى القافلة الراحلة بلا توقف؟ هل يعلم أبناؤه هذا إذا حدث أم تراهم مكتفين بحياهم الخاصة؟ لماذا لم يسأل عنه أحدهم إلا لماماً أو في بضع مناسبات طيلة ما يزيد على الثلاثين عاماً؟ عمن ورثوا هذه الطباع؟ لماذا استغنوا عنه؟ أهذا قدر أم أنه عقاب من الله؟ ولمـاذا يكـون عقاباً؟ إنه لم يخطئ كثيراً في حياته، طوال عمره في بلدته، مـع أبيه وأمه حتى رحلا، مخلصاً لزوجته مخلصة له حـتى مـضت، دافع عن أرضه حتى تحررت، عمر أرضه حتى أوشكت بمرضـه على الضياع منه، لم يقترف ما يستحق أن يترل به لأجله كـل هذا البؤس. لم كل هذا؟

ووسط الأسئلة التي أضاءت في عقله كل لحظة كطلقـات الإشارة، يعلو صوت قصفها على ما يحيطه من السكون، لمـح ضوء يقترب بسرعة، ينقض كصاعقة تترل من السماء علـى شجرة ثابتة فتشطرها نصفين، قدر هجم عليه في ثانية في صورة كتلة مجنونة من المعدن فألقاه على الأسفلت وسـحق لحمـه

بإطارات غليظة امتزج سوادها بالدم قبل أن تتوقف وتـــصرخ مجيبة على صرخته على بعد أمتار منه وهو مكوم علي الأرض، ينتظر الليل الزائل أن يترل بغطائه عليه فيصنع له تابوتاً يمضي به السيارة إلى العالم الآخر.

***

قفزت من الدماء الـــسائلة علـــى الأرض أذرع أمـــسكت بإطارات السيارة فأوقفتها ساكنة تكاد تشتعل من فرط السرعة والاحتكاك بالأرض، وبعد أن انطلقت الصرخة من فم الحـــاج سالم تفجرت في حلقه آلاف الصرخات ولكنها كانت تنـــدفع إلى الداخل لا إلى الخارج، تملأ صدره فيوشك على الانفجـــار وإن لم يسمع له أحد صوت وهو مسجى علـــى الأرض بـــلا حراك.

ترجل هيثم وصاحبه ثم سالي من السيارة، اقترب ثلاثتـــهم من الجسد الملقى ببطء وكانت سالي في المؤخرة تتحرك بحـــذر شديد وكأنما تخشى أن تقع في فوهة بركان، ولمح ابن العم من بعيد رجلاً يقترب يبدو في خطواته شئ من عـــدم الاتـــزان، فحول نظره إلى هيثم وهتف به: "اتصرف يا هيـــثم...اعمـــل حاجة لا تروح في داهية".

غالب هيثم تردده واقترب من الحاج سالم وهز جـــسده ثم نظر في عينيه نصف المغمضتين وقال بأسف: "احنا متأسفين يا حاج..بس والله ما شفناك..الدنيا ضلمة وانت معدي من غـــير

ما تبص حواليك".

تأوه الحاج قليلاً ثم سعل سعالاً عنيفاً لم يستطع بعد الكلام.

نظر هيثم إلى ابن عمه وقال: "معاك فلوس يا معلم؟"

أخرج حافظة نقوده وأعطى هيثم منها بضع ورقات من فئة المائة جنيه أخذها هيثم ووضع بعضاً منها في ملابس المصاب قبل أن يصل من شهد الحادث ويسأل عما حدث وكيف حدث فقال له: "لا حضرتك دي خبطة بسيطة.. معلهش الراجل كبير ما كانش واخد باله وهو بيعدي الشارع.. احنا متأسفين على أي حال".

قال الرجل ببرود: "شكله هيحتاج يروح المستشفى وهيبقى فيه سين وجيم وكلام كتير قوي".

حاول هيثم السيطرة على أعصابه وقال للرجل: "احنا مش غلطانين يا أستاذ بس احنا مش عايزين اسمنا ييجي في حاجة.. وصله على المستشفى لو سمحت واهي كلها ميت متر ويبقى هناك.. ودول رزقك بس ما تجيبش سيرتنا.. قول عربية ماشية بسرعة ما وقفتش وما شفتش نمرها".

وأعطاه بضعة أوراق مالية وضعها الرجل في جيبه ثم قال: "تحت أمرك يا باشا.. اهو أمر الله كده.. قضاء وقدر.. اتفضلوا انتم بقى".

قفزت سالي على الفور إلى السيارة مثل ضفدع انسكب عليه حمض مركز، وفتح ابن العم باب السيارة الأمامي ووثب على المقعد، ولكن هيثم بقي واقفاً يتطلع إلى وجه الرجل الذي غاب عن الوعي تماماً، تأمل وجهه ملياً ثم رأى بعقله ولا يدري لماذا صورة أبيه، أغمض عينيه وفتحهما مراراً وتكراراً، أغمضهما ثانية للحظات وكأنما يرى أمامه وحشاً مخيفاً، أخذت عيناه ترمشان بجنون ثم تمالك نفسه ومال على الرجل وهمس: "انت منين يا حاج؟"

ولما نظر ابن العم إلى هيثم ووجده منحنياً على الرجل يهمس في أذنه، صرخ فيه وجسده ينتفض من الانفعال والتوتر والغضب: "انت هتحكي معاه.. خلص وتعالى".

طعنت صرخته هيثم فأجفل وجرى إلى السيارة ثم أزاح ابن عمه من على مقعد القيادة: "عن إذنك يا باشا..انت متوتر قوي".

تزحزح ابن العم إلى المقعد المجاور وجلس هيثم على مقعد السائق وأدار السيارة بأسرع ما يمكنه، انطلقت ثانية بأسرع مما كانت تسير من قبل، وخفت ارتجافات سالي تدريجياً وابتسمت ابتسامة منكسرة وقالت بصوت متردد خفيض: "احنا عملنا اللي علينا..مش كده؟"

لم يجبها أيهما وظل هيثم يغمض عينيه بقوة كل بضع ثوان

وكأنه يستفيق من كابوس مريع، وانطلقت السيارة بأقصى سرعتها و لم تصدم أي شخص آخر لبقية مسارها، وتناسى هيثم كل ما كان يفكر فيه وألقى به فوق دواسة الوقود التي ضغظ عليها بقدمه بكل قوته، فاندفع الهواء من فرجة زجاج النافذة الخلفية يصطدم بوجه سالي التي همست شفتاها بهدوء واستمتاع وكأنها تقبل الهواء: "cool".

***

تلقى عبده في النهار السابق برقية من أحد معارفهم في البلد تفيد بوصول والده إلى القاهرة للعلاج وإجراء العملية المقررة في نفس اليوم ليلاً، تلقاها وهو يشعر بمزيج من التلهف والاستياء والسخط على حياته، إذ كان مستاءاً من وضع مسئولية أبيه كلها عليه حتى أنه الوحيد من إخوته الذي يعرف الوالد عنوانه في القاهرة، إلا أن تلك المسئولية لم تكن كبيرة، لم تزد على بعض السلامات يبعث بها الوالد عن طريقه إلى بعض معارف أو أقارب في القاهرة أحياناً يتحمل مسئولية رد تحيتها إلى والده وأحياناً لا يردون السؤال فيرتاح هو من مسئولية إعلام والده بكل صغيرة وكبيرة وكل طلب أو معروف يحتاجه هؤلاء المعارف.

لم يحتج إليه والده كثيراً منذ فترة مرضه، فقد كان كافياً طالما كان الحاج محتملاً عبأه مجرد السؤال عنه وتهنئته بالمناسبات

الاجتماعية بضع مرات في السنة، أما الآن فقد وضع الحمل كله على رأس عبده: يجب أن يستقبل والده في منزله في مصر القديمة، المكون من غرفتين مبنيتين بالطوب الأحمر والأسمنت على الحارة تمكن من أن يعلوهما ببعض الطلاء منذ عدة سنوات، يقيم فيهما مع زوجته وأربعة أولاد، بين أكبرهم وأصغرهم خمسة أعوام في العمر، إلا أنهما ولحظه في نفس السنة الدراسية.

ويجب عليه تحمل تكاليف إقامته معهم وإعاشته طوال الفترة التي يبقى فيها في القاهرة، والتي يرجح أن تطول إذ أن العملية إلى حد ما صعبة ولها طابور انتظار في المستشفيات فيه يسبق العشرات الحاج سالم، ولا يسلم الأمر من مصاريف نثرية من إكراميات التمورجية في المستشفى ومصاريف الشاش والقطن وملاءات السرير وخلافه مما سيتحمل دفع ثمنه حتماً في المستشفى، بالإضافة إلى بعض لترات من الدم أو ثمنها يتبرع بها ذوو المريض عندما يطول مرضه.

كان عبده يعرف هذا جيداً ويدركه، ويعلم أنه لا محالة قائم بكل هذا رغم أنه صنايعي بسيط يكفيه قوت يومه بالكاد، وفي ليلة أثناء نوم الأولاد وأمهم هتف لنفسه ساخطاً: "يا دي الحظ الأسود.. يعني هيبقى موت وخراب ديار؟!"

ولكن التلهف كان يعود إلى أن هناك ما يمكن أن يعوضه عن كل هذه الأعباء التي سيضطلع بها، ما سيجعل حظه يرتفع ويجعل الدنيا تتوقف عن خصامها له وتخطب الناس وده.. إنها الأرض، صحيح أنها لا تتجاوز عن آخرها بعض القراريط ولكن ذلك يكفيه تماماً، أسعار الأراضي والعقارات في ارتفاع مستمر، وما يرتفع سعره لا يهبط ثانية أبداً، أرض إذا تمكن من التخلص من مستأجريها وتحقق حلمه الذي يرى بوادر له بالفعل بأن تدخل الأرض ضمن كردون المباني فيقفز سعرها أضعاف، ستحل تلقائياً كل مشاكله وينتقل من المستنقع الذي يعيش فيه إلى "الناس المحترمين اللي معاهم فلوس" كما كان يقول لنفسه ويتمنى، يترك ذلك المكان الذي يعيش فيه مع الصعايدة ومع المجاري والفئران والقمامة والحظ الذي يلعنه كل يوم مرات، إلى عالم آخر نظيف بديع.

لم يداخله شك في أنه يستحق الأرض، فبقية إخوته أحوالهم المادية على خير ما يرام، ليس فيهم من يسف التراب إلا إياه، يسكنون في مناطق نظيفة من المدينة ويتعلم أولادهم في الجامعات، الحكومية منها والأخرى المسماة بحروف انجليزية لا يتمكن من قراءتها في إعلاناتها في التلفيزيون القديم الذي يملكه، ما حاجة ذلك الغني الذي يدفع في زواج ابنته مئات الآلاف من الجنيهات ويأنف عن مجرد إعلامه هذا ليعرف بطريق الصدفة، وما حاجة أخيه الملتصق به كالتوأم السيامي لكي ينفحه من جوازيه، الذي أدخل ابنه كلية تخرج منها الوزراء

ورؤساء الوزراء على حس أخيه، ما حاجة مثلهما إلى قراريط من طين أسود عليها مستأجرون ذوو أنياب زرق؟ فيم تجشم العناء من أجلهما وأجل الاثنين الآخرين وهم يضعون أيديهم في المياه الباردة ولا يتلظى بنار الحاجة سواه؟

عقد العزم على تليين صلابة الحاج بالكلام الناعم قبل العملية لكي يتمكن من اصطحابه إلى الشهر العقاري ليسجل فيه عقد بيع له يضمن ألا تقسم الأرض على الإخوة الأربعة الآخرين عند وفاة الحاج، لا شك أن الحاج سيتأثر بوقوف ابنه معه في معاناته رغم ظروفه الصعبة، سيدرك أن الأحق بأرضه هو من وقف بجانبه هذا الموقف، سوف يوقع على العقد عن طيب خاطر بابتسامة طالما رآها على وجهه قبل أن يغادره منذ ثلاثين عاماً تقريباً، ثم ينصرف الحاج، إلى بلده، أو إلى ربه، سيان.. لا هذا يبالي ولا ذاك.

ولما لم يصل الحاج في تلك الليلة إلى منزل ابنه، قرر في الصباح أن يذهب إلى المستشفى ليستعلم هل وصل إليهم الحاج سالم أم لا.

***

وصل الحاج محمولاً على أكتاف ذلك الرجل الذي شهد الحادث ورجل آخر تصادف مروره في نفس الشارع إلى قاعة

الاستقبال في المستشفى حيث قال الرجل الأول أن المصاب قد صدمته سيارة مسرعة لم يلمح شكلها جيداً فأسرع هو إلى المكان وحمل المصاب مع الرجل الآخر إلى المستشفى القريب، ولم يعثر على إثبات شخصية للمصاب أو أي شئ من هذا القبيل، فقد تكفل أحد التمورجية بدون ملاحظة من كانوا في الاستقبال بالاستيلاء على حافظة نقود الرجل صعيدية الطراز ذات المسامير المغروزة في أطرافها، بعد أن لمح أطراف أوراق مالية تبرز منها.

تم تحويل المصاب سريعاً إلى قسم الجراحة لعمل اللازم، وفي إحدى الغرف المنبثقة من رواق طويل مرتفع الجدران ضعيف الإضاءة وكأنه الطريق إلى الجحيم، وقف طبيب يختفي نصف وجهه خلف كمامة بيضاء بياض الكفن، حرك فكيه المعدنيين ليخرج من فمه صوت آلي للأطباء الواقفين حوله:

"Amputation"(= بتر)

ولما رأى في أعينهم فضول المهنة استطرد: "مفيش حل تاني..إصابة شديدة للمفصل وكسر متفتت للعظم.. جهزوا أوضة العمليات" وتحركت الممرضات ببطء جنائزي وبدأ الإعداد للعملية.

***

وسط القاعة المسقوفة بالمظلات الخشبية، المكتظة بعشرات المرضى بعضهم جالس والآخر قاعد على الأرض أو نائم عليها، تحرك عبده باحثاً عمن يكلمه ليسأله عن الحاج سالم الذي كان من المفترض أن يصل إليهم في الليلة الفائتة.

بعد البحث سأل ممرضة بدينة سمجة الملامح عن كشف المستقبلين المقرر إجراء عمليات لهم، لم تتحقق هذه الخطوة إلا بعد دفع أول خمس جنيهات، أخذت تقلب بعينيها الباردتين في كشف طويل عن اسم سالم، ثم أخبرت عبده بأنه لا يوجد عندهم سالم.

"إزاي ما عندكوش؟ ده وصل إمبارح والمفروض يكون قدم ورقه من المستشفى في قنا عشان تعالجوه هنا".

ردت الممرضة ببرود: "شوف الكشف بنفسك، ما عندناش حد اسمه سالم، ما حدش سالم.. ممكن بقى تتفضل من هنا".

انصرف عبده من المكان إلى خارج المستشفى، عن يمينه ويساره مناظر البؤس مجسداً في شكل آدميين، مشاهد لا يخطر على بال المرء أنها يمكن أن توجد وتصيب إنسان، التهبت أعصاب عبده وبعد نصف ساعة كان يجري مكالمة لأحد معارفة القليلين في البلدة ليعرف ما إذا كان والده قد سافر أصلاً من هناك أم لا.

"ايوه يا حاج طاهر.. أبويا سافر ولا لسه عندك؟"

تلقى كلمات تعجب كثيرة تقول بأنه سافر في اليوم السابق إلى مصر، ثم توالت الأسئلة بدون أن يجيب عبده، ألم يستقبله في المحطة؟ ألم يأخذه إلى البيت عنده؟ ألا يعرف أين هو الآن؟ حي أم ميت؟ كيف هان عليك أبوك إلى هذه الدرجة؟ "لولا أني أعرف والدتك الله يرحمها كنت قلت إنك ابن حرام".

بينما كان الرجل على الطرف الآخر يرغي ويزبد ويلوم ويؤنب ويطرح أسئلة لو تركه عبده يكمل إلقاءها لملأت كتاباً، هتف عبده بالسلام في ضيق ووضع السماعة وأغلق الخط.

إذاً والده في القاهرة فعلاً، ولكنه ليس في المستشفى كما أكدت الممرضة، وبالتأكيد ليس في البيت عنده، وليس عند أحد أبنائه الآخرين، أنى له بمعرفة أماكن سكنهم أساساً أو ما إذا كانوا في البلاد حالياً أم خارجها، إذاً أين يمكن أن يكون؟

كيف يمكن أن يكون حاله الآن؟ هل هو حي أصلاً؟ مع من هو الآن؟ كيف سيعثر عليه؟ ما حالة ساقه التي سيجري فيها العملية؟ هل يعرف موعد العملية أم لا؟ ماذا إذا لم يجريها؟ هل سيعجز؟ لقد كانت أمنيته الكبرى أن يظل بصحته وعافيته طوال عمره سواء طال أم قصر، هل سيحدث عكس هذه

الأمنية؟ ماذا فعل في دنياه ليستحق كل هذا منـها؟ كيـف لم يخطر على باله هو أن والده يلقى كل هذه المعاناة؟ كيف عاش ما يقارب الثلاثين سنة بدون أن يفكر في هذا؟ كيف لم يفكر هو وإخوته فيه إلا مرات في السنة؟ ما الذي قسا قلـوبهم إلى هذا الحد؟ إن ما تحدثه في هذه الحياة يرد إليك، ترى أيفعل به أولاده المثل بعد سنين؟ أيهلك في بلده وأولاده في بلاد أخـرى لا يبالون به، وإن اهتم أحدهم فلأنه يهتم لأمـر شـئ مـن ممتلكاته؟ أولى به أن يبيع أرضه هذه ويهب ثمنها لأي كـائن كان، فليحرقها حتى، سيكون هذا أفضل من أن يعطي أحدهم إياها، إنهم جميعاً لا يستحقون ذرة من تراب هـذه الأرض، لا يستحقون حتى أن يدفنوا فيها، ياللجحود الذي يجعل المرء يقتل لكي يعيش! ثم برقت في ذهنه هذه الجملـة كالـصاعقة: "إذا تحكم نكران الجميل في إنسان بهذه الطريقة، فالأفضل لـه أن يموت، الأفضل له ولغيره، هذه الدنيا لا تحتمل كل هذا الـشر، إن استمر فيها إنسان مثل هذا فقل عليها السلام.

فليعثر عليه الآن، يقبل الأرض بين يديه، بين قدميه، يقضي ما بقي من حياته يكفر عن جحوده، فقط يعثر عليه، لا يريـد شيئاً آخر من هذه الدنيا، فلتذهب إلى حيث ألقت، فليعطه الله الفرصة، يعثره على والده، وساعتها سيمنح حياته عن طيـب خاطر ليعطيه دقيقة من السعادة، لو احتـاج الحـاج إلى ري الأرض بالدم لما تردد هو لحظة في أن يعطيه دمه حـتى آخـر نقطة، لو يلقاه الآن، لو يظهر له ولو لثانية واحدة.

مضى عبده في الشوارع لا يرى ما حوله، لا يسمع أبـــواق السيارات التي كادت تصدمه بضع مرات ولا شتائم ســـائقيها له، مشى كالمخدر، كدمية تتحرك على مــــسرح عمــــلاق، لم يشعر إلا بكلمات النفي التي جاوبت أسئلته عن والده في أقسام الشرطة والمستشفيات القريبة من محطة مصر، كل كلمـــة "لا" تشعل في قلبه ألسنة لهب من الندم، مضى في الشوارع يغسلها بدموعه ويرسم فيها خطوطاً بين المستشفيات التي سأل فيهـــا عن والده و لم يجده، دموع بدا كأن بياض عينيه سوف يـــسيل معها على الأرض بعد قليل إذا لم يجده، وهو يطوف في الليـــل البهيم يبكي ضياع الأرض والعرض، وضياع الوالد والولد.

***

الفهرس

